العنوان : مجلة العرب
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل - هاتف : ٢٢٩١٥
الرياض : المملكة العربية السعودية

العرب ٥١

مجلة شهرية جامعة

صاحبها ورئيس تحريرها : حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
١٨ ريالاً للأفراد ، ٢٥ ريالاً للهيئات
الرسمية والشركات عدا أجرة البريد
الإعلانات : يتفق بشأنها مع الإدارة
ثمن الجزء : ريالان عربيان

الجزء الثالث - السنة الخامسة - رمضان ١٣٩٠ - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠

من خصائص بعض المدن والقرى

في أمثالها ، وما يقال عنها

- ٢ -

٧ - **البُسيطة** : قال القاضي عبدالعزيز بن علي الجرجاني: انه سأل من لا يحصي من الأعراب عن وحش وَجْرة فلم يروا لها فضلاً عن غزلان بسيطة[١]. فكأن ُبسيطة هذه مشهورة منذ القدم بالغزلان ، وهذا صحيح .

وقد عرف ياقوت بسيطة ، فقال : ُبسَيْطَة : بلفظ تصغير بسطة : أرض في البادية بين الشام والعراق ، حدها من جهة الشام ماء يقال له أمر ، ومن جهة القبلة موضع يقال له قعبة العلم ، وهي أرض مستوية ، فيها حصا منقوش ، أحسن ما يكون ، وليس بها ماء ولا مرعى ، أبعد أرض الله من السكان. سلكها أبو الطيب المتنبي لما هرب من مصر الى العراق ، فلما توسطها قال بعض عبيده وقد رأى ثوراً وحشياً : هذه منارة الجامع . وقال آخر منهم وقد رأى نعامة : وهذه نخلة ؛ فضحكوا ؛ فقال المتنبي :

بسيطة - مهلاً - سقيت القطارا ... تركت عيون عبيدي حيارى
فظنوا النعام عليك النخيل ... وظنوا الصوار عليك منارا
فأمسك صحبي بأكوارهم ... وقد قصد الضحك منهم وجارا

وقال نصر : بسيطة : فلاة بين أرض كلب وبلقين بقفا عفر أو أعفر . وقيل : على طريق طيء الى الشام[٢].

(١) « الوساطة » ص ٣١ طبعة الحلبي . (٢) « معجم البلدان » .

وأقول : تسمى بسيطة الآن البسيطاء ، ويقول الشاعر العامي المعاصر الهربيد:

ألّلتي لهم باقصى بسيطا مدالي

ولا تزال معروفة بكثرة الغزلان ، وقد رأيت عند مروري ببلدة النبك قاعدة القريات في مزرعة الأمير نايف بن عبد العزيز السديري سرباً من الغزلان في حظيرة المزرعة ، ومعها أطلاؤها . وأخبرني بكثرة الظباء في تلك الجهات .

وتقع البُسيطة غربي وادي السرحان ، ممتدة بامتداد الوادي ، مبتدئة من الشمال من وادٍ يدعى حدرج إلى قرب نهاية وادي السرحان من الجنوب وهي أرض كما وصفها ياقوت ، وفي أطرافها الشرقية الجنوبية أقواز من الرمال (وتقع بقرب الدرجة ٣٠َ / ٢٩° الى ٣٠َ / ٣٠° عرضاً شمالياً ومن الدرجة ٠٠/°٣٨ الى الدرجة ٣٥َ / ٣٨° طولاً شرقياً تقريباً) .

٨ – بيشة – بكسر الباء بعدها ياء ساكنة فشين مفتوحة فهاء – يطلق هذا الاسم على واد يقع في جنوب الجزيرة وتنحدر اليه أودية كثيرة من السراة سراة غامد وسراة خثعم وما حولها ، كما ترفده أودية أخرى من بلاد عسير غربها وجنوبها وشرقها ، ويسمى الوادي بأسماء مختلفة ، منها : ١– بيشة بعطان قديماً ، وهي التي تعرف الآن باسم بيشة بدون اضافة . ٢– وبيشة ابن مشيط وهي من روافد بيشة أيضاً – ٣ – وبيشة ابن سالم ، وكلها تجتمع في وادي بيشة الكبير الذي يعرف أيضاً باسم بيشة النخل ، وهذا الوادي على درجة من الخصوبة ، وفيه قرى زراعية ، وفيه نخيل وسكان كثيرون ، وليس هذا محل التفصيل عن الوادي ، ولكنه محل ايراد المثل المعروف اليوم:(لو مع بيشة بيشة سابت العيشة) وهذا يدل على خصب هذا الوادي ، فتربته طيبة ، ومياهه لا بأس بها ، وهي عذبة . (وتقع بيشة هذه بقرب الدرجة ٤٥َ / ٤٢° طولا ١٥َ / ٢٠° عرضاً شمالياً تقريباً) ، أما فروع هذا الوادي فتمتد إلى مسافات بعيدة .

٩ – تبالة : قرية تقع في واد يعرف باسم وادي تبالة . من روافد وادي

بيشة ، فيما بين قريتي الروشن والدّحو (بقرب الخط العرض الشمالي ٠٥َ/٢٠ْ)
ويطلق اسم تبالة على القسم الأعلى من الوادي ، أمـــا أسفله فيعرف باسم (وادي الثنية) . وفي هذا الوادي عدد من القرى ، منها قرية تدعى الآن المضبة ، وهي التي كانت تعرف قديماً باسم تبالة . وورد فيها المثل : (أهون من تبالة على الحجاج) .

ويقول الادريسي [١] : (مدينة تبالة صغيرة ، بها عيون متدفقة ومزارع ونخل ، وهي في أسفل أكمة من تراب ، ولما وليها الحجاج بن يوسف من قبل عبد الملك بن مروان سار اليها فلما بلغ اليها لم يَرَها ، فسأل عنهـا فقيل له : إنها في أسفل هذه الأكمة التي بين يديك . فقال : إن بلدة تسترهـــا أكمة لخليقٌ أن يقال فيها : أهْوِنْ بها . ثم انصرف عنها ، فصار ذلك مثـــلاً ، يقال : (أهون من تبالة على الحجاج) .

ويسكن تبالة الآن فخذ المُصْعَبين من الفَزَع من قبيلة خثعم، القبيلة الصريحة النسب ، المعروفة .

وقال ياقوت : َتبالة : بالفتح ؛ قيل: تبالة التي جاء ذكرها في « كتاب مسلم ابن الحجاج » موضع ببلاد اليمن ، وأظنها غير تبالة الحجاج بن يوسف ، فإن تبالة الحجاج بلد مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن ، قال المهلبي : تبالة في الاقليم الثاني ، عرضها تسع وعشرون درجة ، وأسلم أهل تبالة وجرش من غير حرب فأقرّهما رسول الله ﷺ في أيدي أهلها على ما أسلموا عليـه ، وجعل على كل حالم ممن بها من أهل الكتاب ديناراً ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، وكان فتحها في سنة عشر ، وهي مما يضرب المثل بخصبها ، قال لبيد :

فالضيف والجار الجنيب ، كأنما هبطا تبالة مخصبـــاً أهضامهـا

وفيها قيل : أهون من تبالة على الحجاج ، قال أبو اليقظان : كانت تبالة

---
(١) « نزهة المشتاق » .

أول عمل وليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فسار اليها فلما قرب منها قال للدليل : أين تبالة وعلى أي سَمْتٍ هي ؟ قال : ما يسترها عنك إلا هذه الأكمة ، فقال : لا أراني أميراً على موضع تستره عني هذه الأكمة ، أهون بها ولاية ! وكرّ راجعاً ولم يدخلها ، فقال هذا المثل . وبين تبالة ومكة اثنان وخمسون فرسخاً نحو مسيرة ثمانية أيام ، وبينها وبين الطائف ستة أيام ، وبينها وبين بيشة يوم واحد ، قال : وسمّيت بتبالة بنت مكنف من بني عمليق ، وزعم الكلبي انها سميت بتبالة بنت مَدْيَن بن ابراهيم ، ولو تكلف متكلف تخريج معاني كل الأشياء من اللغة لساغ أن يقول : تبالة من التبل وهو الحقد ، وقال القتال :

وما مغزل تَرْعى بأرض تبالة أراكاً وسدراً ناعماً ما ينالُها
وترعى بها البَرْدَيْن ثم مقيلها غياطل ، ملتجٌ عليها ظلالُها
بأحسن من ليلى ، وليلى بشِبْهِها ، إذا هُتِكت في يوم عيد حِجالها

وينسب اليها أبو أيوب سليمان بن داود بن سالم بن زيد التبالي ، روى عن محمد بن عثمان بن عبد الله بن مقلاص الثقفي الطائفي ، سمع منه أبو حاتم الرازي [1] .

وأقول: تفريق ياقوت في غير محله ، فالمتقدمون — عندما يكون الموضع في جنوب الجزيرة — يقولون بأنه في اليمن ، والتحديد بين أجزاء الجزيرة ليس دقيقاً ومن ثم وقع الخلط بين المتقدمين ، وبالإجمال ، فكل ما تقدم ينطبق على تبالة المعروفة ، وهي تقع بقرب الدرجة ٢٨َ / ٤٢ْ طولاً و ٠٢َ / ٢٠° عرضاً .

١٠ — تُرَبَة : بضم التاء وفتح الراء وبالراء وبعدها تاء ، يطلق هذا الاسم على واد من أعظم أودية الجزيرة تنحدر فيه أكثر أودية سراة زهران ، ثم تسير متجهة مارة بالخرمة نحو الشمال الشرقي حيث تحجز رمال ما يعرف باسم نفود سبيع دون استمرار جريان السيول .

---

(١) « معجم البلدان » .

بلاد العرب في بعض مؤلفات علماء الأندلس والمغرب

– ٩ –

(العناوين من وضع المجلة)

حضرموت :

وقال الإدريسي: ومدينة حضرموت إحداهما تريم والأخرى شبام، فأما تريم فقد تقدم ذكرها ، وأما شبام فهو حصن منيع جامع بأهله في قنة جبل شبام وهو جبل منيع جداً لا يرتقى الى أعلاه إلا بعد جهد. وفي أعلاه قرى كثيرة، ومزارع ومياه جارية وغلات ونخل وخصب زائد . ويوجد في هذا الجبل أحجار العقيق وأحجار الجمست وأحجار الجزع وهي في ذاتها عند وجودها أحجار مغشاة أغشية ترابية ، لا يعرفها إلا طالبها بعلاماتها المشهورة فتعمل هذه الأحجار ، فاذا عملت وصقلت ظهر حسنها وصفا جوهرها ، ويحكي طلابها ومستخرجوها أنهم يجدون هذه الأحجار في أودية مخفاة ، وخطها ملوّن بأنواع من الألوان الحسنة ، فيلتقطون هذه الأحجار من بينها ويأتون بها الى صناعها فيحكونها ويتجر بها التجار من هذه البلاد . ويتصل بأرض حضرموت أرض الشحر وبها قبائل مهرة ، وهم عرب صرح ، والإبل المنتجة عند هؤلاء العرب لا يعدل به شيء في سرعة جريها ، ومن غريب ما ينسب اليها انها تفهم الكلام ، وتعلم ما يراد منها بأقل أدب تعلمه ، ولها أسماء إذا دُعِيَتْ بها جاءت ، وأجابت بغير تأخر ولا توان في ذلك ، وقصبة أرض

ومن الأمثال القديمة حول تربة قول عامر بن مالك بن جعفر العامري المعروف بملاعب الأسنة ، وكان قد غاب عن بلاده مدة طويلة ، فلما عاد الى تربة وكانت بلاده ألصق بطنه بأرضها فوجد راحة فقال : (عرف بطني بطن تربة)[1]. يضرب في كل شيء يوصل إليه بعد تمنّيه. وتربة الآن بلدة ذات نخيل وسكان كثيرين، تقع على الدرجة ٤١/٣٢َ° طولاً و٢١/١٥َ° عرضاً تقريباً.

(١) « معجم البلدان » و « مجمع الأمثال » وغيرهما .

— ٩ —

(العناوين من وضع المجلة)

حضرموت :

وقال الإدريسي: ومدينة حضرموت إحداهما تريم والأخرى شبام، فأما تريم فقد تقدم ذكرها، وأما شبام فهو حصن منيع جامع بأهله في قنة جبل شبام وهو جبل منيع جداً لا يرتقى الى أعلاه إلا بعد جهد. وفي أعلاه قرى كثيرة، ومزارع ومياه جارية وغلات ونخل وخصب زائد . ويوجد في هذا الجبل أحجار العقيق وأحجار الجمست وأحجار الجزع وهي في ذاتها عند وجودها أحجار مغشاة أغشية ترابية ، لا يعرفها إلا طالبها بعلاماتها المشهورة فتعمل هذه الأحجار ، فاذا عملت وصقلت ظهر حسنها وصفا جوهرها ، ويحكي طلابها ومستخرجوها أنهم يجدون هذه الأحجار في أودية مخفاة ، وخطها ملوّن بأنواع من الألوان الحسنة ، فيلتقطون هذه الأحجار من بينها ويأتون بها الى صناعها فيحكونها ويتجر بها التجار من هذه البلاد . ويتصل بأرض حضرموت أرض الشحر وبها قبائل مهرة ، وهم عرب صرح ، والإبل المنتجة عند هؤلاء العرب لا يعدل به شيء في سرعة جريها ، ومن غريب ما ينسب اليها انها تفهم الكلام ، وتعلم ما يراد منها بأقل أدب تعلمه ، ولها أسماء إذا دُعِيَتْ بها جاءت ، وأجابت بغير تأخر ولا توان في ذلك ، وقصبة أرض

ومن الأمثال القديمة حول تربة قول عامر بن مالك بن جعفر العامري المعروف بملاعب الأسنة ، وكان قد غاب عن بلاده مدة طويلة ، فلما عاد الى تربة وكانت بلاده ألصق بطنه بأرضها فوجد راحة فقال : (عرف بطني بطن تربة)[١]. يضرب في كل شيء يوصل إليه بعد تمنّيه. وتربة الآن بلدة ذات نخيل وسكان كثيرين، تقع على الدرجة ٣٢َ/٤١° طولاً و١٥َ/٢١° عرضاً تقريباً.

(١) « معجم البلدان » و « مجمع الأمثال » وغيرهما .

مهرة تُسَمّى الشّحْر ، ولسان أهل مهرة مستعجم جداً لا يكاد يفهم ، وهو اللسان الحميري القديم ، وأكثر أهل هذه الأرض قبائل ، وهي قفر ، يتنقل بها قبائل مهرة ، وجُلُّ مكاسبهم الابل والمعز ، وجملة دوابّهم التي في بلادهم تعتلف السمك — المعروف بالوذف — يصاد في ذلك البحر من بلاد عُمَان ، وهو حوتٌ صغير جداً ، يصاد ويشمّس ، وتعلف به الدواب والابل ، وأهل مهرة لا يعرفون الحنطة ولا خبزها ، وإنما أكلهم السمك والتمور ، وشربهم الألبان وقليل الماء ، قد اعتادوا ذلك وألفوه ، فلا يعوّلون على غيره من الأغذية ، ومتى دخل أحد منهم البلاد المجاورة لهم وأكل شيئاً من الحنطة وَجَدَ لذلك ألماً ، وربما مرض لذلك ، ويقال إن طول بلاد مهرة ٩٠٠ ميل ، وعرضها في جميع طولها من ٢٥ ميلاً الى ١٥ ميلاً الى ما دون ذلك ، وهذه الأرض كلها رمل سيال ، والرياح لاعبة به تنقله من مكان الى مكان ، ومن آخر بلاد الشحر إلى عدن ٣٠٠ ميل ويتصل بأرض مهرة أرض عمان ، وهي مجاورة لها في جهة الشمال ، وبلاد عمان مستقلة بذاتها ، عامرة بأهلها ، وهي كثيرة النخل ، والفواكه الجرومية من الموز والرمان والتين والعنب ونحو ذلك .

صور وقلهات :

ومن بلاد عمان صور وقلهات وهما على ضفة البحر الخليج الفارسي ، وهما مدينتان صغيرتان ، ولكنهما عامرتان ، وشربهما من الآبار ، ويصاد بهاتين المدينتين اللؤلؤ قليلا . وبين صور وقلهات مرحلة كبيرة في البر ، وفي البحر دون ذلك ، ومن صور الى رأس الجُمْجمة خمسة أيام في البر ، وفي البحر (مجريان) ورأس الجمجمة هو جبل عال على ضفة البحر ، يمر بالعبر (؟) في غب الحشيش.(الخيس؟) ويندفن في الماء فلا يعلم حيث يصل، وربما تكسرت المراكب عليه ، وفي رأس الجمجمة مغايص لؤلؤ . ومن قلهات على الساحل الى مدينة صحار مائتا ميل ، ويقرب منها على الساحل :

قرية دَمَا : وهي قرية تكون في الشتاء عامرها قليل ومعايشها كاسدة وتصرف أهلها قليل ، وأما في الصيف فانها تكون كالمدينة العامرة ، وكان بها مغيص اللؤلؤ الجيد جدا ، وهي مشهورة بجيد اللؤلؤ المستخرج بها .

مَسقَطُ وصُحَار :

(ومن مسقط إلى صحار – وهما قريتان عامرتان – أربعمائة وخمسون ميلاً ، لا ساكن بها ، ومدينة صحار على ضفة البحر الفارسي ، وهي أقدم مدن عمان ، وأكثرها أموالاً ، قديماً وحديثاً ، ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم ، وإليها تجلب جميع بضائع اليمن ، ويتجهز منها بأنواع التجارات ، وأموال أهلها واسعة ، ومتاجرهم مربحة ، وبها نخل كثير ، ومن الفواكه الموز والرمان والسفرجل ، وكثير من الثمار الحسنة العجيبة الطيب . وكان في القديم من الزمان تسافر منها مراكب الصين ، فانقطع ذلك ،وسبب انقطاع السفر من مدينة عمان أنّ في وسط بحر فارس مما يقابل مسقط جزيرة تسمى جزيرة كيش ،وهي جزيرة مربعة ، طولها اثنى عشر ميلاً في عرض اثنى عشر ميلاً ،وفيها مدينة كيش ،فوليها عامل من اليمن ،فحصّنها ، وأحسن الى أهلها ، وعمّرها ، وأنشأ بها اسطولا فغزا به بلاد اليمن الساحلية فأضرّ بالمسافرين والتجار ، ولم (يترك) لأحد مالاً ، وأضْعف البلاد ، وانقطع بذلك السفر من عمان ، وعاد الى عَدَن . وصاحب جزيرة كيش يغزو بهذا الأسطول مدينة الرانج (؟) ويصل الى بلاد (الغامرون (؟) وأهل الهند يخافونه ، ويهابون شرّه ، ويواسونه (؟) بالمراكب المسماة بالمشعيات(؟) يكون طول المركب منها طول الغراب الكامل من عود واحد ، يجدف فيه فيه مائتا رجل ، فأكثر [. . . .] . في وقت هذا التأليف ان عند صاحب كيش من هذه المراكب المسماة بالمشعيات خمسون مركباً كل واحد منها من قطعة واحدة ، وعنده من سائر المراكب الملفقة جملة عديدة ، وهو الآن على هذه الحال يغزو ويسبي ، وعنده أموال كثيرة ، وليس لأحد به طاقة وبمدينة كيش زروع وأغنام وأبقار وكروم ، وبها مغاص اللؤلؤ الجيد . ومن صحار الى هذه الجزيرة مجريان ويحاذي هذه الجزيرة من بلاد اليمن مسقط وبينهما مجرى ، ومن ساحل كرمان التيزوشط (؟) .

سفال والعفر :

ويقابل صحار في البرية على مسير يومين بلدان متصلان بينهما واد يسمى وادي الفلج واسم آخر البلدين سفال (؟)، والآخر العفر، وهما مدينتان صغيرتان عامرتان بهما نخل كثير ومزارع وحدائق ونخل وثمر وهما متقاربتان في القدر، وشربهما من نهر الفلج ، وتسمى الارض التي هما بها نزوة ، ويتصل بهاتين المدينتين على مقدار نصف يوم مدينة ضنج وهي مدينة صغيرة في اسفل جبل يسمى جبل مشرح حيث ينبعث نهر الفلج وهو نهر كبير عليه قرى وعقارات متصلة إلى ان يصب في البحر بقربة قرية جلفار ، والغالب على بلاد عمان الشُراة ، وأكثر الشراة في وقتنا هذا منحشرون غامرون في بلدة تسمى يثرون في غربي بلاد عمان، ولهم هناك قرى وعمارات وهم متحصنون بجبل لهم ويثرون في أسفله، وفيما يقال ان حدود بلاد عمان تكون تسعمائة (؟) ، وهي بالجملة بلاد حارة ويذكر ان جبل مشرح ينزل باعلاها ثلج قليل ، وبين نجد وبلاد عمان براري متصلة ، وببلاد عمان حية تسمى العربد وإليها ينسب السكران المعربد ،وهي حية تنفخ ولا تؤذي وهي كثيرة التناقز ، ويحكى انها متى اخذت ووضعت في آنية زجاج وتوثق من رأسها ، ووضعت في وعاء وأخرجت من بلاد عمان ثم تفقدت الآنية لم توجد الحية فيها بوجه، وهذا مثبت في هذه الحية والاخبار بها شايع، وفي بلاد عمان ايضاً دويبة صغيرة تسمى القراد اذا ظفرت بجارحة من الانسان عضته فلا تزال تعضه وتربو وتتزايد إلى ان تتورم وتتقيّح ، ولا يزال ذلك الدود يتبقى(؟)في جوف الانسان حتى يموت، وفي جبال عمان قردة كثيرة تضر بأهلها اضراراً كلياً ، وربما اجتمع منها العدد الكثير حتى لا يطاق دفاعها الا بالخروج اليها بالرماح والسلاح ، وحينئذ يقدر على دفاعها ، ومن بلاد صحار إلى بلاد البحرين نحو من عشرين مرحلة ، وطريق عمان في البرية إلى مكة او غيرها صعب جداً ، لكثرة القفار وقلة السكان ، وإنما يسافرون في المراكب إلى مدينة عدن ومن عدن يسافرون — ان شاؤوا براً أو بحرا وكذلك من صحار التي من ارض عمان إلى البحرين في جهة الشمال طرق متعذرة السلوك لتنازع العرب بها ، ومحاربتهم وغاراتهم بعضهم على بعض ، فليس لمسافر معهم امان في نفسه ، ولا في شيء من ماله . «نزهة المشتاق للإدريسي».

قبيلة العوامر: أصلها وبلادها

(نشرت « العرب » – ٦٠٩ / ١٠٣٩/٨٢٢ – السنة الرابعة ، أبحاثاً عن أنساب آل مرة ، بني هاجر . المناصير ، من إعداد قسم البحث والترجمة في (شركة الزيت العربية الأمريكية) وسبقت الاشارة الى الغاية من نشر ذلك وفي البحث الآتي – وهو تتمة لما سبق نشره – تفصيل عن القسم الذي ينتشر في شرق الجزيرة من قبيلة العوامر ، فعسى أن يجد فيه القراء ما يفيد، وأن يصححوا ما فيه من أخطاء تقع تبعتها على من أعدّ البحث) .

تنقسم هذه القبيلة الى ثلاثة أقسام كل قسم يكاد يكون مستقلاً عن الآخر، يسكن قسم منها في حضرموت والثاني معظم الوقت في المملكة العربية السعودية والثالث في عمان . والثاني – أو القسم الأوسط – هو الذي يتناوله هذا التقرير .

الرئيس الأكبر : سالم بن حمد بن ركاض من الحيوان من آل بدر.

الديرة : والقسم الأوسط من العوامر ليس لهم ديرة خاصة ينتمون اليها ولكنهم يقضون معظم وقتهم في الختم الذي يفضلونه على الأماكن الأخرى ، ومع ذلك يترددون أيضاً على البقاع الواقعة شمالي البريمي والظاهرة في عمان وكذا الأجزاء الجنوبية والشرقية من الربع الخالي ويتجولون أحياناً أبعد من ذلك .

والعوامر قبيلة تعيش على الفطرة ولهم دراية بالأماكن الشرقية من الربع الخالي أكثر من غيرهم من البدو الآخرين كما انهم أدلاء بارعون .

النسب : يتضح ان العوامر (واحدهم عامري) ينتمون الى آل كثير من العرب الجنوبيين ، نسل قحطان ؛ وإن آل كثير هؤلاء هم اليوم من أكبر قبائل حضرموت . وتتكون قبيلة العوامر من ثلاثة فرق منفصلة تستوطن في

نواح مختلفة في شرق البلاد العربية؛ ويعتبر كل فريق مستقل أو شبه مستقل ومنعزل عن الفرق الأخرى .

الفريق الجنوبي : يقطن هذا الفريق في أواسط حضرموت وفي الشمال الأوسط منها حيث يقيم الحضر منه على المجرى الرئيسي لوادي حضرموت،بينما ينتشر البدو في المنطقة الواقعة ما بين الوادي ورمال القسم الجنوبي من الربع الخالي ؛ وجميعهم يمتّون بصلة القرابة والزمالة القريبة لآل كثير الذين هم من أشهر قبائل حضرموت [1] .

الفريق الأوسط : هذا الفريق الذى يتألف من البدو الذين ينتشرون في أنحاء الختم وفي عدة مناطق أخرى ، وهو الفريق الوحيد الذي له صلات وثيقة بالبلاد العربية السعودية ، ومن ثَمّ كان هو وحده الذي عولج أمره بالتفصيل في الدراسة الحالية .

الفريق الشمالي الشرقي : هذا الفريق الذي يتكون في الغالب من العرب الحضر الذين يسكنون في الواحات ، ينتشر في كافة أواسط عمان وشرقه وفي الباطنة ، وأفراده هم أنصار الحزب الهناوي [2] ، ويعترفون بالمذهب الاباضي أما اؤلئك الذين يقطنون في عُمان فيظهر ان جميعهم من رعايا إمامة عمان بينما هناك ما يحمل على الظن ان اؤلئك الذين يقطنون في الباطنة جميعهم من رعايا سلطان مسقط .

ومع أن أفراد العوامر يزعمون أحياناً أن اسم جدهم الأعلى الذين انحدروا منه هو عامر بن صعصعة ، الجد الكبير لإحدى القبائل العربية العدنانية القديمة ، إلا انه ليس هناك دليل قوي يثبت رجوع نسبهم الى هذا الأصل

(١) يمكن الحصول على معلومات عن هذا القسم من العوامر وعن الحالة الاقتصادية والسياسية لبلاد حضرموت من تقرير : (و . هـ . انقرامز) مطبوع بلندن سنة ١٩٣٦ م وهو يحتاج الى تنقيح وتبسيط .

(٢) في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، كان عرب عمان منقسمين الى حزبين ، الهناويين والغافريين ، وينتمي الهناويون تقريباً الى العصبة القديمة للعرب الجنوبيين ، والغافريون الى العرب الشماليين .

العربي الشمالي ، وهذا بلا ريب مجرّد مثال آخر لصلات القرابة التي تفترض على أساس تشابه عرضي في الأسماء ، وقد ينطبق نفس الأمر على القول بأن العوامر يمثلون في الوقت الراهن بني عامر وهم فرع من بني هلال ، ومن أشهر القبائل ابّان العصور الوسطى في البلاد العربية وأن انحدار نسبهم إما من عامر بن صعصعة أو بني عامر ، قد يعني في كل الاحتمالات بأن العوامر دخلوا عمان من جهة الشمال الغربي بينما هناك أدلة جازمة تشهد بأنهم في الواقع جاؤوا من الجنوب .

وللعوامر اعتقاد آخر يبدو أنه يكشف عن هذا الأمر أكثر من غيره : وهو انهم قد انحدروا عن همدان من أصل العرب الجنوبيين التابعين لقحطان[1]. ويعترف العوامر بقرابتهم من القبائل الاخرى التي يرجع نسبها الى همدان وقحطان ، وعندما يلتقي عامريٌ بفرد من آل مرة لا يعرف اسمه ، يحييه بقوله : « أهلا يا ابن همدان » ، ويزعم عوامر الفريق الأوسط بأن وطنهم في الأصل كان بحضرموت في الأرض التي لا يزال يحتلها الفريق الجنوبي وانهم من نفس الأصل لآل كثير ، الذين يدعون أيضاًبانهم من سلالة همدان[2] ان ثلاثة على الأقل من أفخاذ الفريق الأوسط وهم آل كليلة وآل خميس والجعافرة — تحمل نفس الأسماء التي تحملها أفخاذ الفريق الجنوبي ، زد على ذلك ان استعمال الفريق الأوسط لكلمة « بيت » في تسمية الأفخاذ أو الفروع ، هو أمر مشاع على وجه الاطلاق بين القبائل الجنوبية . ومن المحتمل ان آل الحيو ، أسرة ابن ركاض الرئيس الأكبر الحالي للعوامر ، ليسوا من أصل عامري ، إذ أن احدى عقائد القبيلة تشهد بأن الحيوي الجد الأعلى للأسرة أجنبي انخرط في سلك القبيلة ، ومع أنه عند قدومه كان من البؤس إلى درجة انه لا يملك حتى رحل بعير[3] فقد استطاع هو وأحفاده ان يحلوا

(١) انظر سلسلة النسب لآل مرة (ص ٦٢٤ السنة الرابعة) .

(٢) يستعمل العوامر وآل كثير وَسْماً واحداً لإبلهم ويقال ان لديهم نداء واحداً للحرب (العِزْوة) .

(٣) يقال انه اقتبس اسمه « الحيوي » نسبة الى أنه « حوى » (بمعنى لف) عباءته على شكل يجعل منها مقعداً لنفسه على بعيره .

محل آل كليلة الرؤساء السابقين ، في السلطة على القبيلة ، وهناك رأي يشير إلى أن آل الحيو ربما كانوا قد انحدروا من قبيلة سُبَيع في أواسط البلاد العربية ، ولعل ذلك يرجع الى التشابه بين الاسم (ابن ركاض) والركاكضة (المفرد ركاضي) وهو اسم فخذ من سبيع .

ومهما يكن الأمر فإن البقية من الفريق الأوسط تكاد تكون وحدة متجانسة الخصال الى حد كبير ، ومع ذلك يوجد غموض عظيم يكتنف العلاقات بين الفريق الأوسط والقبائل الأخرى التي تقاسمه موطنه ولا تبتعد عنه كثيراً ، والتي كثيراً ما تعرف بالعوامر : وهي آل سلم وبيت قيمال وآل محرم والعفار والحراسيس ، ومن هؤلاء ربما يكون آل سلم في الحقيقة على حد قولهم ، فرعاً من العوامر ، إذ انهم على صلة وثيقة بالعوامر أكثر من أية جماعة أخرى من اؤلئك ، كما انهم هم الوحيدون الذين لهم روابط قوية بالبلاد السعودية ، ولهذه الأسباب هم وحدهم الذين تناولهم البحث في شيء من الاسهاب في هذا التقرير ، كما سيأتي . أما بيت قيمال فيتكون من فريق صغير ، قد لا يتجاوز عدد أفراده الخمسين رجلاً يخيم بعضهم مع العوامر في الختم ، بينما يحتفظ البعض بكينونته الخاصة ، ولم يعرف شيء عن أصلهم . أما آل محرم ، وهم فريق صغير للغاية قائم بذاته ، يقال انه ينحدر من آل كثير ، حيث يقطنون مع العوامر بالختم . والعفار هم قبيلة صغيرة غير معروفة كثيراً تسكن في المحلات النائية المتطرفة ، وكثيراً ما تهتم بممارسة بعض العادات التي تنفر منها بعض القبائل العربية . أما الحراسيس فهي قبيلة موغلة في البداوة تمتد ديرتها الى مسافة بعيدة جنوبي الفريق الأوسط للعوامر ، والواقع ان في لهجتهم غير العربية والخاصة بهم ، لدليل يكاد لا يقبل الجدل على انهم لا يمتون بصلة للعوامر ، أما العلاقة المعنية بين هذه القبائل والعوامر ، فلعلها ناشئة فقط من الظروف التي جمعت بين سائر هذه القبائل لتسكن في الاقليم ذي الحدود الجغرافية ما بين رمال القسم الشرقي من الربع الخالي وسهول عُمان ، بعيداً عن المدن التي تستخدم كموانيء لدخول العالم الخارجي .

ديرتهم : يزعم عوامر الفريق الأوسط أنفسهم بأنه ليست لهم ديرة قد

يسلم بوجه عـــام انها تابعة لهم ، وهم على العموم يفضلون الختم على أي موضع آخر ، وما يمكثونه من وقت بهذا الموضع قد يفوق كثيراً مـــا يمكثونه بأية جهة أخرى ، بيد انهم يعترفون بأن الختم يقع داخـل ديرة اصدقائهم من آل بوشامس الذين يملكون بساتين النخيل هنالك.وفضلاً عن الختم يقوم العوامر في كثير من الأحيان بزيارة الأودية ، وهي إقليم به عدّة مجارٍ من الماء شمـــالي البريمي [1] .

وكذلك يزورون الصّفا ، أحد وديان الدروع ، الواقعةالى الجنوب الشرقي من الختم . هـذا وليس من الغرابة في شيء أن تجدهم أيضاً في سهول الظاهرة بعمان ، ويذهب البعض منهم من وقت لآخر لزيارة أقاربهم من فريق العوامر الشمالي الشرقي في الشرقية .

ان العوامر التابعين للفريق الأوسط هم قبل كل شيء من أعراب البـــادية ومن المشكوك فيه ما إذا كان آل مرة الأجزاء الوسطى للربع الخالي أو آل راشد في الجنوب يمكن أن يجاروهم كرحالة مقدامين في الصحراء . ومن عادة آل مرة أن يعبروا الربـع الخالي بطريق أسهل من الطريق الشرقيـــة التي يفضلها العوامر [2] . أما آل راشد فيبدون أقـل تجوالاً في المناطق البعيدة مما يفعل العوامر ، ومن المناظر المألوفة أن ترى العوامر يتنقلون بعشرين أو اربعين بيتاً شهراً كاملاً عبر الرمال من الختم الى مقشن بالطرف الجنوبي للصحراء حيث يقضون فصل الصيف بجوار أشجار النخيل التي يقال انها زرعت بواسطة بيت روضة من الحيوان . وهناك يختلطون بـــأفراد المناهيل وآل كثير والحراسيس ومهرة ، ليس هناك قبيلة تعرف بطاح المنادر الجافة كما يعرفها العوامر ، كما انه يندر أن يوجد كثيب أو عرق من رمال الظفرة لم يشاهده العوامر في تجوالاتهم لا سيما في المناطق الجنوبية من البطين والكدن ،وهناك

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن هذه المنطقة ، التي تعرف محلياً باسم الويدية ، [الأودية] انظر الفصل عن أواسط الطف في الباب الخاص بالظفرة

(٢) يعبر أفراد هذه القبائل والقبائل الأخرى الربـع الخالي مرات لا تحصى في سياق حياتهم العادية ، وهذه الرحلات تكون عادة من الشمال الى الجنوب أو من الجنوب الى الشمال دون تغيير تقريباً ، اذ ان ليس لهم مصلحة حيوية في السفر من الشرق الى الغرب أو بالعكس .

بعض منهم تكاد لا تنقطع زياراته للمغرب ، وهي المنطقة الجنوبية الغربية من الظفرة حيث تنتشر الرمال بصورة لا حد لها تقريباً .

وقد تركت هذه الحياة التي تسير على وتيرة واحدة في الرمال أثرها في رجال القبيلة .

ويتكلم العوامر لهجة من الصعب التعود عليها ولكنها - بالرغم من مزاعم بعض السواح الغربيين - لهجة عربية وتتميز لهجتهم بغرابة النطق ، ولكن عندما يتقنها الانسان يجدها قوية ومعبّرة ، وان طول الاقامة بالبادية تجعل من العوامر أدلاّء مهرة لهم ادراك للاتجاهات قل أن يخطئه التوفيق ، وخبرة مكينة بطبيعة الأرض ومواقع المياه فيها ، ولو انهم لا يضارعون آل مرّة كقصاصي آثار . ويتمتع العامري بجسم هزيل وهبت فيه قوة خارقة من الصبر والاحتمال ، ومما يساعده أكثر على ذلك أيضاً روحه المرحة التي يواجه بها الأرض الجرداء التي حملته الأقدار أو رغباته الخاصة على التجوال فيها [١].

ومع ان عوامر الفريق الأوسط هم من أهل البادية مولداً فتوجد فئة منهم تمكنت من امتلاك نخيل في بقع مختلفة . وهذه هي المواضع التي يملكون فيها نخيلاً :

في الجواء :

ظفير : مسلّم بن جوعان من آل عمرو من آل لز .

قطوف : سليّم بن محمد من آل عمرو .

مزيرعة : حمد بن عبيد من بيت عبيد من آل خميس من آل لز .

جفيف : حمد بن عبيد .

حمار : الرضة بن نعيف من بيت نعيف من آل خميس من آل لز .

العيد : سالم بن قناص من بيت قناص من آل خميس من آل لز .

السالمي : حمد بن عبيد.

---

(١) ذكر شاهين بن فلاح القصيلي من آل بو منذر وهو أحد شعراء المناصير أن دار العوامر كلها مجنونة (أي مسكونة بالجن) .

وآخرون يملكون نخيلاً في الظاهرة بعُمان وهم :
سالم بن محسن راعي الغزالة من الحيوان من آل بدر : يملك نخيلاً بالقابل .
الحلاطي من آل بدر : يملك نخيلاً بالقابل والهرموزي وضنك .
بيت العويني من آل بدر : وله نخيل بضنك .
بيت القتال من الجمافرة من آل لز : يملك نخيلاً بالسنينة .
بيت الجزرى من آل مبارح من آل لز : يملك نخيلاً بالمعمور ، وهي قرية يستوطنها بنو قتب ، تقع شمالي أفلاج بني قتب مباشرة .

ولاؤهم : ان العوامر التابعين للفريق الأوسط من رئيسهم الكبير ابن ركاض الى أدنى واحد منهم يؤدون الزكاة السنوية للحكومة السعودية ، وقد درجوا على ذلك ما ينيف عن ٢٠ سنة ، حيث ان العوامر من هـذا الفريق ليس لهم موطن ثابت ، فقد يجدهم جباة الزكاة في موضع أو أكثر من المواضع المنتشرة من الختم الى الغرب . وحسب القواعد الخاصة بجباية الزكاة إذا وجد عامري خارج حدود المملكة تماماً في الوقت الذي تحصل فيه الزكاة فلا يطالب بدفع أي شيء ، ومع كل فتجولات السواد الأعظم من العوامر لا تتعدى نطاق المنطقة التي يسرح بها جباة الزكاة ، وليس هناك ميل من رجال القبيلة للتحرك خارج الحدود كي يتفادوا أداء الزكاة . والبدو من الذكاء بحيث يدركون ان أداء الزكاة يعود عليهم بالمنفعة تماماً ، كما يؤول بالمنفعة أيضاً على الحكومة طالما ان ما يدفعونه يمنحون مقابله سلماً وحماية .

العوامر (عامري) :

الرئيس الأكبر : سالم بن حمد بن ركاض من الحيوان من آل بدر .
أ – آل بدر (بدري) .
الرئيس : سالم بن ركاض من الحيوان .
آل الحيو أو الحيوان (حيوي) – ابن ركاض .
(١) – بيت ركاض – ابن ركاض (٢) بيت روضه (٣) بيت مرزوق (٤) بيت العبطنه (٥) بيت القرين (٦) بيت الخصوان (٧) بيت اللوبح

(٨) بيت يطبع (٩) بيت يزرب .

ب – آل كليلة (كليلي) – محمد بن سهيل بن حتممت الكليلي .

(١) بيت حتممت – ابن سهيل (٢) بيت عنوده (٣) بيت صادر (٤) بيت القرموش (٥) بيت صبيحة (٦) بيت غريب (٧) بيت عصيان (٨) بيت معيضد (٩) بيت صالح بن الماكب (١٠) بيت قدح (١١) بيت موزه (١٢) بيت طويرش .

ج – الحبانين (حبناني) الطشّة بن ثعيلب الحلو وسعيد بن الحوته .

(١) بيت ثنيه – ابن ثعيلب (٢) بيت الحوته – ابن الحوته (٣) بيت علوبه (٤) بيت قروان (٥) بيت منقاش .

الحلاطي (حليطي) – سهيل بن علي بو حسن .

(١) عيال بو حسن – ابن علي (٢) بيت الخنتيل (٣) بيت المطيب .

هـ – المقاضّه (مقيضّي) – العوف بن النوبي بن فويطم .

(١) بيت فويطم – ابن النوبي (٢) بيت ابن الكلب (٣) بيت غاضب (٤) المشابحة (مشبوحي) .

و – بيت العويني – حمد بن حمد بن حمرور .

(١) بيت حمرور – ابن حمد (٢) بيت عـله (٣) بيت ابن الاسود (٤) بيت مسلم .

٢ – آل لز (لزي) .

أ – آل عمرو (معمري) – سعيد بن سالم بن غريفه .

(١) بيت غريفه – ابن سالم (٢) بيت مزينـه (٣) بيت الربيعي (٤) بيت حوتان (٥) بيت زعيتر (٦) بيت المشحون (٧) بيت الهويمل (٨) بيت ضحية (٩) بيت الجابري (١٠) بيت ربيـع (يقطن بالشرقية) (١١) بيت الجرو (١٢) بيت المرّ .

ب – آل خميس (خميسي) – مسعود بن سالم بن مضحيه .

(١) بيت مسعود – ابن سالم (٢) بيت ابن الروس (٣) بيت آل ناصر

(٤) بيت قهيّـه (٥) بيت نعيف (٦) بيت عبيد (٧) بيت رېزه (٨) بيت لوكش (٩) بيت طاسه (١٠) بيت قطو (١١) بيت بنيه (١٢) بيت الرخف (١٣) بيت مريود (١٤) بيت قناص (١٥) بيت صنباري (١٦) بيت عطيّ (١٧) بيت نوره (١٨) بيت كردوس (١٩) بيت حتروش (٢٠)آل عبد الله (٢١) آل وعيل .

ج ــ آل مبارح (مبارحي) ــ سالم بن سليم بن الجزري .

(١) بيت الجزري ــ ابن سليّم (٢) بيت وريقـه (٣) آل السمح (٤) بيت الرضه (٥) بيت موره (٦) بيت عدله .

د ــ الجمافرة (جعفري) ــ سعيد بن الخالص بن القتال .

(١) بيت القتال ــ ابن الخالص (٢) بيت الذويب (٣) بيت حبتسور أو الحباترة (٤) بيت قضيم (٥) بيت الطيور (ابن الطير) .

هـ ــ آل عصيد (عصيدي) ــ الكعم بن سعيد بن بختان .

(١) بيت بختان ــ ابن سعيد (٢) بيت الشيا (٣) بيت خموشه (٤)عاطي (٥) العضيلي .

و ــ آل حيثول (حيثولي) ــ محمد بن سعيد بن الكيله .

(١) آل الكيله ــ ابن سعيد (٢) بيت الحوطي (٣) بيت الغاليـه (٤) بيت شنوه وأي بيت الشرقي .

المصادر الكتابية : في الواقع لا توجد مصادر كتابية عن الفريق الأوسط من العوامر .

المصادر الشفوية : (١) ثعيلب بن صقر بن مسعود من بيت مسعود من آل خميس من آل لز ، وهـو موظف بشعبة البحث بشركة الزيت العربية الأميركية .

(٢) حمد بن عبيد بن عوض من بيت عبيد من آل خميس من آل لز

(٣) عوض بن ناخي من بيت سبولة من المناهيل ، وهو موظف بشعبة البحث بشركة الزيت العربية الأميركيـة ، وما مكثه من وقت في السنين الأخيرة مع العوامر أكثر من الوقت الذي قضاه بين قبيلته .

تعليقات حول:

ديوان

عمرو بن معديكرب الزبيدي

تحقيـــق : هاشم الطعـــان

بقلم : الدكتور يحيى الجبوري

عمرو بن معديكرب بن ربيعة بن عبد الله الزُبيدي فارس من فرسان العرب المعدودين ، وشاعر مجيد من شعراء اليمن ، وقد شهر الفرسان في الجاهلية والاسلام وكانوا ينسبون الى قبائلهم ، وقلمـا نسبوا الى العرب إلا عمراً ، يقول صاحب «الحور العين» : (كان يقال لكـل فارس من العرب : فارس بني فلان إلا عمراً فيقال له فارس العرب جميعاً) (ص ١١٠) .

كنيته أبو ثور وكان زعيم قومه كما كان أخوه عبد الله ، وقد وفـد في الجاهلية على الملوك من آل جفنة الغساسنة في الشام ، ووفد على النعمان بن المنذر في العراق ، ويقال ان النعمان أوفده إلى كسرى (الأغاني ٨/٢٨٠) .

وكانت له أخبار وحروب مع أبطال العرب في الجاهلية والاسلام منهم

---

(٤) علي بن حميد من المراشيد من آل بو منذر من المناصير وهو موظف بشعبة البحث بشركة الزيت العربية الأميركية وقد رأى الكثير عن العوامر بالظفرة والختم .

(٥) سالم بن علي بن سعيد من المحاسنة من آل بوشاس ، وهو عربي شبه حضري من بلدة حماسا بواحة البريمي ،وملم إلماماً كبيراً بالعوامر الذين يزورون الظاهرة .

تعليقات حول:

ديوان

عمرو بن معديكرب الزبيدي

تحقيـــق : هاشم الطعـــان

بقلم : الدكتور يحيى الجبوري

عمرو بن معديكرب بن ربيعة بن عبد الله الزُبيدي فارس من فرسان العرب المعدودين ، وشاعر مجيد من شعراء اليمن ، وقد شهر الفرسان في الجاهلية والاسلام وكانوا ينسبون الى قبائلهم ، وقلمـــا نسبوا الى العرب إلا عمراً ، يقول صاحب «الحور العين» : (كان يقال لكـــل فارس من العرب : فارس بني فلان إلا عمراً فيقال له فارس العرب جميعاً) (ص ١١٠) .

كنيته أبو ثور وكان زعيم قومه كما كان أخوه عبد الله ، وقد وفـــد في الجاهلية على الملوك من آل جفنة الغساسنة في الشام ، ووفد على النعمان بن المنذر في العراق ، ويقال ان النعمان أوفده إلى كسرى (الأغاني ٨/٢٨٠) .

وكانت له أخبار وحروب مع أبطال العرب في الجاهلية والاسلام منهم

---

(٤) علي بن حميد من المراشيد من آل بو منذر من المنـاصير وهو موظف بشعبة البحث بشركة الزيت العربية الأميركية وقد رأى الكثير عن العوامر بالظفرة والختم .

(٥) سالم بن علي بن سعيد من المحاسنة من آل بوشاس ، وهو عربي شبه حضري من بلدة حماسا بواحة البريمي ،وملم إلماماً كبيراً بالعوامر الذين يزورون الظاهرة .

عنترة بن شداد ، وعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث ، وسليك بن السلكة والعباس بن مرداس ، وله مع العباس معارك وأشعار .

وقد وفد عمرو مع من وفد على رسول الله ﷺ سنة تسع وأسلم ومكث في المدينة أياماً ثم رجع الى أهله (طبقات ابن سعد ٣٠٣/٥ ط أوروبا) ،ولما قامت الردة كان عمرو مع المرتدّين ، ثم أسر وجيء به الى أبي بكر الصديق فاعتذر عمرو اليه وعاد الى الاسلام وحسن بعد ذلك إسلامه (ابن الأثير — الكامل ٢٨٨/٢) . وشارك في الفتوح الإسلامية وأبلى في معركة اليرموك بلاء حسناً وأصيبت فيها احدى عينيه ، وشارك في فتوح العراق فقاتل في القادسية ونهاوند وفيها نال الشهادة سنة إحدى وعشرون للهجرة يرحمه الله (مختصر البلدان — ابن الفقيه ص ١٧٢ ومعجم ياقوت ٧٤٤/١) .

وقد ذكر رواة الشعر ديواناً لعمرو صنعه أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ ﻫ) كما صنعه أبو سعيد السكري (ت ٢٧٥ ﻫ) (الفهرست — ابن النديم ص ١٥٨ ط أوربا) . وقد ضاع ديوانه كما ضاعت دواوين كثير من الشعراء ولم يصلنا أثر مخطوط له .

وجاء الأستاذ هاشم الطعان فجمع شعر عمرو من مظانه فرجع الى جملة صالحة من كتب التراث في اللغة والأدب والتاريخ والبلدان،وصنع ديواناً لعمرو بن معديكرب الزبيدي صدر في بغداد في سلسلة التراث التي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام ويقع في ٢٨٦ صفحة . وفي العراق نهضة علمية مباركة تتجه نحو خدمة التراث العربي في أدبه ولغته وتاريخه ، وبخاصة تحقيق كتب التراث وجمع الشعر وصنعة الدواوين ، ولو أتيح لهذه النخبة التراثية من الشباب قدر من الرعاية والظروف الطباعية الحسنة لآتت أكلها على خير ما تؤتي الثمار أكُلاً . ومن هذه النخبة الطيبة شاب له علم الشيوخ وحرصهم على القديم وغيرتهم على العربية هو الأستاذ هاشم الطعان ، وقد حشد في هذا الديوان علماً غزيراً وجهداً كبيراً ولم يبخل عليه من وقته فقد أعطاه من خيرة أيامه ونضرة شبابه ، فبذل في سبيله — كما أعلم— أربعة عشر عاماً أو أكثر ، وكان لتعلقه بعمرو شاعراً وإنساناً أن درس حياة اليمن وقبيلة زُبيد ولغة

الجنوب وألف فيها كتاباً صدر قبل عامين بعنوان (تــأثر العربية باللغات اليمنية القديمة) بغداد ١٩٦٨ .

وقبل أن أتسلم ديوان عمرو هدية كريمة من محققه كنت على صلة بعمرو ، فقد كان من جملة الشعراء الذين أجمع شعرهم ، فلما علمت ان الطعان منصرف الى جمع شعره وتحقيقه توقفت عن ذلك ، وأنا حين أعلم بــأن أحداً يحقق الشعر الذي أحققــه لا أبالي بذلك إلا إذا تيقنت من عـلم ذلك المحقق وجدّه ومثابرته وانه قطع في عمله شوطاً كبيرا ، إذ كثيراً ما نسمع عن مشاريـع لا تخرج أبداً وما أسهل الاعلان عنها ، أو تخرج هزيلة غير أصيلة .

وأول ما تصفحت ديوان عمرو وقفت عنـــد جملة أمور أثارت عجبي وتعجبي ، فالديوان على قدر كبير من الأهمية ، أهمية شعر عمرو وأهمية النقاط التي أثارها وأهمية المنهج الذي اتبعه في التحقيق الذي يثير الإعجاب والرضى تارة ، ويثير السخط تارة ، ويثير الدهشة تارات ، وقد آثرت أن أسجل ملاحظاتي هنا لعلّ فيها فائدة له أو لغيره ، وملاحظاتي هـــذه لا تخرج عن كونها اجتهادات قد ترجح كفتها وقد تشيل :

عندي ان واجب المحقق ينحصر في تحرير نسخة من شعر الشاعر صحيحة خالية من التحريف ، صحيحة النسبة الى الشاعر ، واضحة القراءة ، ميسّرة اللغة ، مدعمة بالتخريج الذي يوثق الشعر ، وأن يكون أميناً في نقل النصوص دقيقاً ناقدا ممحّصاً للروايات ، وأن يجعل الهوامش في خدمة النص لا يثقلها بأمور خارجة عنه . هذه بعض مهمات المحقق ، فإذا جئنا الى ديوان عمرو فماذا نجد ؟

أحب أولاً أن أنبه الى ان تسمية الكتـاب (ديوان عمرو ...) تسمية غير علمية ولا دقيقة ؛ كلمة الديوان تعطي انطباعــاً الى انه يشمل كل شعر الشاعر ، ولو كان المحقق وجد مخطوطة لديوانه وحققها لصحّ أن يسمي عمله (ديواناً) ، ولكنه جمع شعر عمرو من الكتب وليس كل شعر عمرو وصلت اليه يده وهذا ليس بوسع أحد ، إذن فهناك شعر لعمرو لم يعرف بعـد وهو

يقر بذلك ، والأبيات المفردة دليل عليه ، وكثرة المقطوعات هي بقايا القصائد الضائعة ، ولذلك أرى أن تكون التسمية (شعر عمرو ...) .

والمحقق الفاضل مغرم بكثرة التحقيق التاريخي واللغوي والجغرافي والأثري ... ونتيجة لذلك فقد كثرت لديه المقدمات والملاحق والذيول ، فالكتاب عجب في بابه ، فهو يحتوي على مقدمتين ومستدرك وثلاثة ملاحق وإضافة تاريخية غير الفهارس والتصويبات . وافتح ص ٥ وهي صفحة المقدمة التي يتحدث فيها عن سيرة الشاعر ثم بعد صفحات تجد ملحقاً للمقدمة الأولى وذلك في ص ١٣ ، ثم في ص ١٩ مقدمة أخرى للديوان . ومقدمات الدواوين – عزيزي القارىء – إنما توضع بشكل موجز مركّز تكشف عن أهمية الكتاب وتوضح منهج المحقق فيه ، وليست دراسة مطوّلة للسيرة وتاريخ القبيلة ولغات اليمن وجغرافيتها ، فإن موضع هذا كتاب آخر في حياة الشاعر وبيئته ، وعمرو حقيق بدراسة موسعة توفيه حقه .

لقد ترجم المحقق لسيرة عمرو في الصفحات ٩ – ١٢ ثم وجد ان المصادر تختلف في المعلومات التي ترويها عن حياة عمرو ، فأعاد الحديث عن سيرته في الصفحات ١٣–١٥ تحت اسم (تحقيقات في سيرة عمرو) وحق هذه التحقيقات أن ترد ضمناً عند حديثه عن حياة عمرو فيحقق الموضوع الذي يتناوله ويذكر اختلاف المصادر ثم يخرج بنتيجة حاسمة أو مرجحة يرتضيها ويتجنب بذلك التكرار كي يكون العمل منتظماً والحديث مترابطاً خالياً من الاعادة والتكرار .

ومن هذا التكرار الذي لا ضرورة له الملاحق ، فقد استنفدت هذه الملاحق الصفحات ٢٠٩–٢٤١ ولم تقدم أية فائدة تذكر ، وكان على المحقق أن يفيد من المعلومات التي حوتها في دراسة حياة عمرو وشعره في المقدمة ويضرب صفحاً عن الروايات والقصص والأساطير التي لا تخدم الشعر ولذلك أرى أن تحذف الملاحق : (عمرو بن معديكرب الزبيدي في أشعار معاصريه) و (أخبار عمرو بن معديكرب لابن الكلبي) و (الصمصامة).

وأرجو أن يلاحظ ان النصوص موجودة في الكتب وان جمعها وتدوينها لا يعد شيئاً ذا بال ، ويقدر قيمة البحث بمدى الافادة من هذه النصوص واستخلاص الآراء والنظريات من خلالها ، ومن ثم استخدامها لفهم حياة الشاعر وشعره وروح العصر .

وقبل أن أغادر المقدمة ، ألاحظ عليه انه رغم التوسع والتكرار والتحقيق في سيرة عمرو لم يدرس الشعر ولم يبيّن قيمته ولا خصائصه ولا منزلته بين الشعراء ، وهذه أمور لصيقة بالشعر لازمة لمعرفة الديوان .

وإذا جئنا الى أصل الشعر نجد المحقق قد رسم لنفسه منهجاً في أربع مراحل : أولاً : يقدم للقصيدة دراسة في نسبتها ويذكر إن كانت له أو لغيره ، ويستعرض الروايات في ذلك ثم يثبت القصيدة سواء أثبت صحتها لعمرو أم أثبت نسبتها لغيره ، وهذا أمر عجب . ويذكر ثانياً : مناسبة القصيدة والروايات التي قيلت عنها أو حولها . ويدوّن ثالثاً جريدة التخريج، ولا يقتصر هذا التخريج على كتب التراث القديمة بل يدرج بعض المراجع الحديثة التي لا يصح الاعتماد عليها في مثل هذه الأبحاث . ويثبت رابعاً نص الشعر . وكل هذه المراحل في أصل الديوان أي في المتن .

فاذا نزلنا الى الهامش نجد هامشين بدلاً من واحد ، الأول : لبيان معاني المفردات والشروح اللغوية ، وهو ينقل ذلك عن معاجم اللغةوقليلاً ما يتدخل هو ، وهذا شيء حميد . والهامش الثاني : لمقابلة الروايات وبيان اختلاف القراءات ؛ ولكل من الهامشين أرقام خاصة تتبع الأصل.وعنديملاحظات على هذا الأسلوب في التحقيق :

لقد اختلط شعر عمرو بروايات المصادر بكلام المحقق ، فأصبح الديوان في متنه لا يقتصر على شعر عمرو ، بل يحفل بالأخبار والتعليقات والروايات والقصص والشروح ، وتداخل نتيجة لذلك أسلوب المحقق بأسلوب الاخباريين وصار الديوان في هذه الحال أقرب الى (مجالس الزجاجي) و (أماليالقالي) منه الى التحقيق العصري . ولو جعل المحقق كلامه وتعليقاته في هامشالديوان

لتحرر شعر عمرو من أسلوب الرواة والقصاص والاخباريين ، وحقاً ان القدامى كانوا يفعلون هذا في شرح الدواوين وكانت لهم أساليبهم وأسبابهم في عصور خلت ، أما المحدثون فقد شرحوا وعلّقوا وصوّبوا وخطّأوا، كل ذلك في الهامش وليس في المتن . لقد عمل الاستاذان شاكر وهارون في الأصمعيات والمفضليات عملاً جليلا حين ترجموا لصاحب القصيدة وذكروا جوّ القصيدة ثم خرّجوها وشرحوها ، وكل ذلك في الهامش ، وبقي النص سليما مبرّأً من التدخل ، وكان الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد يؤلف الكتب في هوامش الكتب كما فعل في « أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك » لابن هشام ، ولكنه ألف شرحه أو كتابه – كما يجب أن يسميه – في الهامش واحترم النص ولم يتجاوز عليه . أما الاستاذ الطعان فقد طعن هذا العرف أو التقليد أو المنهج ، وراح يفعل ما فعله صناع الدواوين القدامى مثـــل السكري والشيباني والطوسي وغيرهم ، ان ميدان المحقق أو الشارح هو الهامش أو الحاشية يخدم النص من خلاله في حدود معقولة مقبولة .

وكان بودّي أن يفرد المحقق الشعر الذي تثبت صحته لعمرو بلا شبهة أو خلاف ويضبطه ويذكر رواياته في قسم ،ويفرد قسماً آخر للشعر الذي ينسب لعمرو ولغيره من الشعراء وهو كثير ، وبذلك يسلم شعر عمرو ، ويستطيـــع القارىء عندئذ أن يطمئن اليه . وتعال نُلقِ نظرة على قصائد الديوان فماذا نجد ؟

أما القصيدة الأولى فحقها أن توضع ضمن الشعر المنسوب لأنها لم ترد في المصادر التي ذكرها المحقق ، ذلك ان هذه القطعة – وأسمّيها تجوّزاً قصيدة– لا تصحّ لعمرو بل هي ثابتة لسهم (أو سهل) بن حنظـــلة الغنوي صاحب الأصمعية الثانية عشرة ، وهذا الشعر من ذاك ولم ينسبها أحـــد لعمرو إلا صاحب الأغاني في رواية ضعيفة فقد قال : (ومما قاله عمرو بن معديكرب في ريحانة أخته وغنى فيه قوله :

هاج لك الشوق من ريحانة الطربا إذ فارقتكَ وأمست دارها غربا

ثم رجع أبو الفرج عن هذه النسبة وذكر قول الأصمعي في نسبة الشعر الى سهم الغنوي من قصيدة طويلة حسنة كما يقـول الأصمعي (الأغاني ١٥ / ٢٤٠) ولا يعقل ان يتغزل عمرو بأختـه كما فطن الى ذلك المحقق نفسه . ولم يكتف الأستاذ المحقق بفعلته هذه بـل وجد بيتاً هجيناً لا صاحب له ألحقه بالقطعة ، والمبرر عنده قوله : (وقد أضفت الى الأبيات التي رواها صاحب الأغاني (؟) البيت الذي رواه القالي غير معزوّ وعزاه البكري الى سهل بن حنظلة الغنوي ذلك لأنه غير موجود في الأصمعية وفيه ذكر للأبناء) وهـذا لعمري عذر أقبح من ذنب ، فهل يقوم عدم وجود البيت في الاصمعية حجة على ان البيت لعمرو ؟ أم ان ذكر الابناء سبب كاف لنسبته الى عمرو ، لأن عمراً يمني والابناء كانوا في اليمن؟ انك تستطيع أن تنسب – وفق هـذا المنطق – البيت الى أي شاعر آخر من اليمن وهم كثرة منهم قيس بن مكشوح المرادي والافوه الاودي وطفيل بن يزيد المازني والحـارث بن وعلة الجرمي وعبد الله بن عجلان النهدي وزهير بن جناب ومالك بن حريم ومحرز بن شريك الحميري وفروة بن مسيك المرادي ، ولو أسعفتني الذاكرة لسردت لك العشرات منهم .

وإذا كان العمل الادبي يشدّنا الى صاحب الديوان ويجعلنا نتعاطف معه ، فإن الامانة العلمية تجعلنا نفحص النصوص ونفحص المصادر ونعزو الشعر لأهله دونما عصبية أو حماسة لأحد ، فالحب غير العصبية ، والامانة والدقـة العلمية فوق كل ذلك .

أما القصيدة الثانية ففيها البيت الرابع :

عجّتْ نساء بني زياد عجة　　　كعجيج نسوتنا غداة الارنب

اضطربت المصادر في نسبته الى عمرو أو الى رجل من بني أسد ، وقـد نسبه البحتري في حماسته (ص ٦٣) الى الاسدي وكذلك فعل القالي (الامالي ١ / ١٢٤) وسكت عن نسبته الزمخشري (المستقصى ٢ / ٤١٦) وكان حق البيت ما دامت النسبة قد تنازعته أن يوضع ضمن الابيات التي يشك في نسبتها وبخاصة ان في البيت رواية فيها هجاء لبني زبيد : عَجّتْ نساء بـني زبيد

عجة) ، ولا يصح أن ينسب في هذه الحال لعمرو ، ويقول المحقق : (وروى البكري عن ابن حبيب نسبته للأسدي أيضا ، وفي زمن متـــأخر قفّى على آثارهما صاحب اللسان ، ولكننا رأينا ان أقدم المصادر وأوثق المطلعين على ديوان عمرو يثبتون هذا الشعر له) (ص ٢٩) . ومن كلامه نفهم انصاحب «اللسان»نسب البيت للأسدي ولم يذكر عمراً ،وإذا رجعنا الى اللسان(رنب) نجد البيت منسوباً الى عمرو نفسه ، وبهذا صار تعليقه الذي نقلناه حول اللسان لاغياً .

يبقى البيت العاشر الذي وضعه المحقق عاشراً ، وانفرد بروايته صاحب الموازنة ، وقدّر المحقق انه من القصيدة . وعنـــدي ان البيت العاشر ليس عاشراً بل ليس من القصيدة في شيء ، إذ لم يرد ضمن الابيـات وقـد جاء به صاحب الموازنة مفرداً ، وكان حقه أن يوضع مع الأبيـــات المفردة ، وان اقحامه في القصيدة ضرب من المغامرة وحيث لا يقتضيه السياق ، وإذا كان لا بد من وضع هذا البيت في القصيدة ، فحقه عندئذ أن يوضع بعـــد البيت الثالث الذي يتحدث فيه عن بني زياد ويكون قوله :

واستيقنوا منا بوقع صادق هربوا وليس أوان ساعة مهرب
تركوا السوام لنا وكل خريدة بيضاء خرعبة وأخرى ثيّب
عَجّتْ نساء بني زياد عجة كعجيـج نسوتنا غداة الارنب

واستكمالاً لهذه القصيدة عليه أن يشير الى رواية الحيوان في البيت السابع (لا يحسبن بنو طليحة) بالياء التحتية وليس التاء الفوقية ، وقد سقط واو العطف في البيت الثامن (بوفضة وبأكلب) وبه يستقيم البيت .

والقصيدة الرابعة لا تصح لعمرو ، وكان عليــه أن يثبتها في الشعر الذي ينسب اليه وإلى غيره ، هذا القسم الهام الذي يفتقر اليه الديوان ، والقصيدة للعباس بن مرداس ، ونسبتها اليه راجحة ، ولذلك أثبتها في ديوانه ، وقـد جاءت في مخطوطة شعر العباس بن مرداس السلمي ، والمحقق الفـــاضل يقر قراراً صريحا بأنها ليست لعمرو : (القصيدة ليست لعمرو ... وكنت نفيتها دون تردد لولا شيء في نفسي من البيت العاشر فهو عند سيبويـــه منسوب

لعمرو) (ص ٣٣) . والبيت العاشر ورد منسوباً لأربعة شعراء عمرو واحد منهم هم : العباس بن مرداس وأعشى طرود وخفاف بن ندبـــة وعمرو بن معديكرب .

وقد قال المحقق في دراسة نسبة القصيدة : (وقد نشرها الدكتـور يحيى الجبوري في ديوان العباس بن مرداس ووعد بايراد التخريج ولم يفعل) وهذا كلام غير صحيح ، فالتخريج موجود في نفس الصفحة ٣١ من الديوان التي أشار اليها وجاء فيها : (القصيدة في المخطوطة ، والخزانة ١ / ١٦٦ والابيات ١–١٠ في المؤتلف والمختلف ص ١٦–١٧ ، والابيات ١ ، ٧ – ١٤ في شرح شواهد المغني ٢٤٨/١ وغيره) ، هذا هو التخريج ، وهناك تخريجات تفصيلية واضافات أردت إثباتها في الملحق أشرت اليها بكلمة (وغيرهـا) وقلت : (انظر التخربج بعد) وكنت أعددت ملحقاً في عشر صفحات كبيرة فيها تخريجـات واستدراكات ما أردت أن أثقل بها هامش الكتاب وأردت أرجئها الى الملحق ، وقد أودعت هذه الصفحات لدى المطبعة وسافرت الى مكة المكرمة للالتحاق بعملي آنذاك بكليتي الشريعة والتربية ، ولكن لأمر خارج علمي أهملت الصفحات أو ضُيِّعَت ، وقد عانى المحقق عند الطبع في نفس المؤسسة بعض ما عانيت . وأرجـــو أن أستدرك ما فات في الطبعة القادمة .

البيتان في تسلسل القصائد ١٣ قوله :

جئتهم والطير تدعو إلفها في الرابياتْ
فسبينا كل عـذرا من بنـــات ناعماتْ

لم يرد البيتان في مصدر قديم ، وجاءا في مرجع معـــاصر هو « أحسن السبك في شرح قفا نبك» لمحمد يار جنك بهادر، ولا يمكن الاعتماد على مثل هذه المراجع ، عدا ان أسلوب الشعر لا يجانس شعر عمر ، وليس هو من أسلوب ذلك العصر ، وقد تنبه المحقق لهذا ، ثم ان مجزوء الرمل قليـل بل نادر في الشعر القديم ، وكان عليه أن يسقط هذين البيتين ولا يفسد بها شعر عمرو ، فهما من تأليف عصر العجمة والرطانة ، فما قال قط شاعر فصيح مثل قوله :

(من بنات ناعمات) ، فمثل هذا الشعر فاسد ، ظاهر الصنعة ، لا يقبل في حمى الشعر القديم .

ولا أريد أن أسترسل في تفلية القصائد ، ولكني أودّ أن أشير الى القصائد والابيات التي يجب أن يسقطها من الديوان أو يضعها مع الشعر المنسوب أو المتنازع عليه ليسلم شعر عمرو خالصاً له . والقصائد هي: الاولى، والبيت الرابع من القصيدة الثانية ، والرابعة ، والبيتان في ق ١٠ ، والبيتان في ق١٣ و ق ٢٢ غير الثلاثة أبيات الاولى ، والابيات الثلاثة في ق ٣٠ و ق ٣١ وق ٤١ و ق ٤٦ و ق ٤٨وق٥٨وق ٦٢ و ق ٦٤ و ٦٦ و ٦٧ و٨٤و٨٥ و ٨٧ و ٨٩ .

وبقيت هناك هنات هينات كنت أود أن يسلم الديوان منها ، وهي :
ص ١١ عند إشارته إلى صلة قيس بن مكشوح المرادي بعمرو ، وهو ابن أخته ، ذكر المصدر بقوله : (كتب الصحابة) وهذا لا يصح إذ أن كتب الصحابة كثيرة والتعميم مضلة، فكان عليه أن يعين الاصابة مثلا أو الاستيعاب أو أسد الغابة أو طبقات ابن سعد وهكذا ثم يذكر رقم الترجمة وموضعها من الجزء والصفحة ، وقد كرر مثل هذا في ص ١١ مرتين وكذلك في ص١٥ حيث قال : (وانه أدرك خلافة معاوية) وأشار إلى أن الخبر في الأغاني و«الشعور بالعور»و«كشف الظنون » وإذا كنا نتساهل في ذكر الصفحات في كتب التراجم فلا يمكن التساهل في مثل الأغاني ، وقد كثرت هذه المصادر المغفلة في مواضع متعددة .

وفي هامش ص ١٢ ذكر في مصادره الطبري وابن خلدون ثم العقد فالكامل ، وكان حق ابن خلدون أن يؤخر ، وقد التزم المحق في مصادره بذكر الوفيات واغفل ابن خلدون ووفاته سنة ٨٠٨ هـ كما أغفل وفاة ابن هشام صاحب السيرة وهي سنة ٢١٨ هـ وابن منظور ووفاته سنة ٧١٦ هـ وغيرهم .

ص ١٣ بعض المصادر يضعها ضمن الكلام ولم ينزلها في الهامش وبخاصة في

الصفحات ١٣ – ١٥ ويبدو أن هذه الصفحات قد حشرت في الكتاب بعد أن جهز للطبع .

ص ١٥ أسلوب المؤلف أسلوب علمي فيه تواضع محمود ، فهو يتحدث بضمير الفرد حين يقول : (قلت وعملت ورتبت ..) ولكنه يخرج على هذا في مواضع أخرى فيتحدث عن نفسه بصيغة الجمع على شاكلة قوله : (على أننا قد ناقشنا ذلك ونفيناه في دراستنا) ولا يعجبني هذا الأسلوب في تفخيم الذات وبخاصة في الدراسات العلمية ، والأولى أن تختفي الضمائر كلياً إلا عند الضرورة فيستعمل ضمير المفرد .

في ص ٣٣ ذكر البيت :

له هامة ما تأكل البيض أمها واسباح عادي طويل الرواجب

لا معني ل (أسباح) هنا ، والرواية هي (أشباح) بالشين المعجمة ، كما في الشعر والشعراء ط شاكر . والغريب أن يترك المحقق رواية ابن قتيبة (٢٧٦ ﻫ) ويأخذ برواية البغدادي في الخزانة (١٠٩٣ﻫ) .

ص ١٢٠ – ١٢١ ذكر تعليقاً لمحققي الأصمعيات في (جو القصيدة) ثم ذكر تعليق الهمداني صاحب « الاكليل » ثم عقب على ذلك بقوله : (وأنت ترى أن كلا من محققي الأصمعيات والهمداني لم يذكروا مناسبة القصيدة كما يجب) ومع ذلك فالمحقق الفاضل لم يذكر شيئاً من عنده إضافة إلى كلامهم ، أليس من الأصلح أن يذكر هو مناسبة القصيدة كما يجب ان كان هناك ما يقال فيها ؟ وعندها يكون تعليقه أو نقده ذا بال !

ص ١٨٦ البيت ٢١ :

فقذفنهنّ على كهول سادة وعلى شراحة من الفتيان

الرواية الصحيحة في الأمالي الذي نقل عنه : (من الشبان) ولعل هذا من سهو الطبع .

ص ١٤٦ قوله :

فلولا سراة الحي من آل مالك   وذروة عوف كان حوضك مترع

وقد سقطت (كان) من الشعر ، وفي الهامش : (وفي هامش الاكليل (كان تامة) ثم علـــق المحقق قوله : (قلت ولست أرى وجها لتامها) ، وأقول : بل الوجه هو تمامها وبه يستقيم البيت ، إذ أن البيت عند عمل كان يصبح : (كان حوضك مترعا) ويقع الشاعر في الاقواء .

وكنت أود بعد هذا لو أن الأستاذ المحقق عني بضبط الشعر وشرح بعض المفردات الصعبة وخاصة القصائد ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ولو ترك الأبيات المفردة دون أن يتدخل في محاولة جمعها وضم بعضها إلى القصائـــد . أما الأخطاء المطبعية فكثيرة والظاهر أن المحقق أو المصحح أهمل التصحيح في القسم الأخير من الديوان ، أما فهرس المصادر فيحفل بالأخطاء المطبعية ولم تمتد إليه يد بالتصحيح اطلاقاً .

ومهما يكن من شيء فإن الأستاذ الطعان بتحقيقه وجمعه شعر عمرو قدم خدمة جليلة للتراث العربي فقد أضاف إلى المكتبة العربية أثراً نفيسا عزيزا طال ارتقابنا إياه ، والقارىء لديوان عمرو يجد الجهد الكبير الذي بذله المحقق الفاضل ويلمس العلم الغزير والفهم الأصيل لطبيعة الشعر القديم وأصوله ومصادره وتمكنه الظاهر في اللغة وأساليبها .

وأنا وإن كنت اختلف وإياه في الشكل والمنهج فإني أبارك له هذا الكتاب القيم الذي لولا علمه الغزير وأدبه الأصيل ما عنـّاني مشقة قراءته والكتابة عنه ، وأرجو لأخي الطعان مزيداً من الانتاج الجيد في دروب التراث العربي.

كلية الآداب ـــ جامعة بغداد   يحيى الجبوري

أبو علي الهجري

ونوادره

[نشرت – في عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) – بحثاً هو « أبو علي الهجري وأبحاثه في في تحديد المواضع » جاء في ٤٤٣ صفحة – وقدمته بهذه الكلمة : (الإهداء : عرف الهجري – في القديم – بطريق علماء المغرب الأقصى كابن حزم السرقسطي ، وابن سيده وغيرهما من أهل الأندلس ، وعرف – في الحديث – بطريق علماء من أقصى الشرق : أستاذنا العلامة الجليل أبي عمر عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، والأستاذ زبير الصديقي ، والأستاذ أبو محفوظ الكريم من بلاد الهند . فإلى تلك النخبة الممتازة من العلماء العاملين في سبيل العلم ، للعلم وحده ، أقدم هذا البحث رمز اعتراف بفضلهم ، وهو أقل من أن يفي باليسير من واجب الوفاء لهم ، غير أنه جهد المقل)ولقد حاولت معرفة عناوين هؤلاء العلماء بطريق الملحقين الثقافيين في سفارتي الهند وباكستان لأبعث اليهم نسخاً من هذا الكتاب ، فلم أتمكن . فبعثتها بواسطة سفيرنا في الهند وباكستان سابقاً وفي العراق الآن الشهم المفضال الشيخ محمد الحمد الشبيلي . ويظهر أن بعض النسخ لم يصل إلى من بعث إليه ، فقد اطلعت في جزء ربيع الأول سنة ١٣٨٩ (يونيه سنة ١٩٦٩م) على بحث ممتع للأستاذ أبي محفوظ الكريم المعصومي ، يدل على أنه لم يطلع على مؤلفي عن الهجري ، وقد رأيت نشر هذا البحث لما فيه من معلومات قيمة ، تدل على ما يتصف به كاتبه الأستاذ الجليل من سعة اطلاع وقوة اهتمام وعناية بالأدب العربي ، وباللغة العربية لغة القرآن الكريم] .

كنت عرفت أبا علي الهجري وكتابه في النوادر والأمالي اللغوية مما أورده عنه الأستاذ عبد العزيز الميمني في حواشيه على كتاب [1] اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري (المتوفي سنة ٤٨٧) اعتماداً على نسخة مخطوطة منه في دار الكتب المصرية ، وقد ذكرها في مقاله المنشور في مجموع المباحث العلمية [2] .

ولما استقر بي الأمر في مدينة كلكتا ظهر لي في أثناء البحث عن نفائس المخطوطات أن خزانة المجمع الأسياوي تحوز نسخة جليلة [3] من نفس هذا الكتاب للهجري ، ويبدو أن الأستاذ وما اتفق للأستاذ الميمني لم يوفق في العثور

عليها أن يعثر عليها ، ولكنني مع ذلك لم أزل تصرفني معاكسة الظروف عن تلك النسخة الشيقة الفاردة ، إلى أن متعني الله أن تكتحل العين بسوادها عام ١٩٥٣ م . والنسخة البالية التي عثر عليها الميمني الجهبذ في الدار ، قد حصلت الجمعية الاسيوية على تصويرها الشمسي فقرأت النسختين معاً قراءة إمعان وتدبر ، وقد تبين لي أن النسختين صورتان من أصل عتيق من نوادر الهجري وليست احداهما عين الأخرى .

ترجمة الهجري : إن أبا علي هارون بن زكريا الهجري، ظل منذ أكثر من ألف عام مغموراً مثل آخرين من نظرائه الذين لم يرزقوا انتشار الذكر في المراكز الثقافية . فبقيت حياتهم تماماً وراء ستار الماضي السحيق .

قد عقد له ياقوت الرومي (المتوفي سنة ٦٢٦ هـ) وحده ترجمة قصيرة جداً في معجم الأدباء له ، وهي قصارى ما وصل الينا عن حياته في كتب التراجم والطبقات ، والترجمة [٤] بنصها كما يلي :

« هارون بن زكريا الهجري أبو علي النحوي ، صاحب كتاب النوادر المفيدة ، روى عنه ثابت بن حزم السرقسطي وغيره ولا أعلم من أمره غير هذا » — ا هـ .

ولقد نقلها السيوطي نصاً في كتابه بغية الوعاة [٥] ، إلا أنه حذف منها الفقرة الأخيرة أعني « ولا أعلم من أمره غير هذا» ا هـ. وتابعها الحاج جلبي[٦] فذكر الهجري وكتاب النوادر المفيدة له وأما بروكلمان الألماني [٧] فانه دل على نسخة الدار فقط ثم نقل الخلاف في اسم الكتاب عن الحاج خليفة في الجزء الثاني من ذيل كتابه [٧] الحافل .

أما هذه النسبة إلى (هجر) فليس عندنا ما يفيد القطع في تحديدها ، فقد عرفنا بهذا الاسم مواضع عديدة في جزيرة العرب كما ذكرها أصحاب البلدان ولكن أشهرها هجر البحرين وقد أرادوها في أمثالهم السايرة منها

قولهم – « مبضع تمر إلى هجر » – فلا غروان تعتبر نسبته إليها أولى ما يوثق به ما لم نعثر على نص في ذلك .

تحديد عصره : ولا سبيل إلى تحديد عصره إلا أن نتشبث فقط بشتى الأمائر والقرائن المبعثرة في طوايا الكتاب وبعضها على وجه الايجاز كما يأتي :

١ – قرأنا فيما أنشد الهجري للشعراء المحدثين من قصائد طائفة ممن عاشوا في الغالب إلى منتصف القرن الثالث ولعل آخرهم جميعاً لم يجاوز أواسط ذلك.

من هذه الطائفة [٨] عمارة بن عقيل الذي مدح الواثق بالله (المتوفي سنة ٢٣٢ هجرية) وعسكر بن عقبة المرداسي وكان بعد [٩] المائتين كما نص على ذلك الهجري نفسه ، وناهض بن ثومة الكلابي الذي ترجم له أبو الفرج الأصبهاني في أغانيه ترجمة [١٠] ضافية ولقد روى عنه مباشرة أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي (المتوفي سنة ٢٥٧ هـ) وعبد الله [١١] بن هُبَيّة من بني هبيرة بن مرداس الذي مدح أبا المغيرة بن عيسى المخزومي وذكر ابن [١٢] حزم ان المخزومي هذا ولي مكة للمعتمد (المتوفىسنة ٢٧٩هـ) .

والظاهر أن الهجري عاصرهم بلا شك ، إلا أنه لم يلقهم ولذلك لم يرو شيئاً من شعرهم بدون واسطة أحد من الرواة .

٣ – وكذلك رأينا ، إلى جانب الاعراب الذين أخذ عنهم بالمشافهة أنه يروي عن اثنين من العلماء المثقفين وهما :

(أ) أبو ذكوان [١٣] ربيب التوزي وكان من أقران المبرد (المتوفي سنة ٢٨٥ هـ) وله كتاب معاني الشعر رواه ابن درستويه .

(ب) وابن الأعرابي (المتوفي سنة ٢٣١) من أئمة اللغة المشاهير [١٤] وعلى فرض أن الهجري لقيه في أخريات أيامه وأنه بلغ إذ ذاك الخامسة عشر من عمره يكون يكاد مولده سنة ست عشرة ومائتين أو ما يقاربها .

ومهما يكن من الأمر فانه من أقران أبي العباس ثعلب الذي ولد على رأس

المائتين وبلغ من العمر عتياً (١٥) ومن صغار أقرانه ابن درستويه الذي ولد سنة ثمان وخمسين ومائتين . هذا ما يعن لي فيما يختص بمولده .

وأما بخصوص نهاية عمره ، فلا يخلو من الفائدة ما تقدم عن ياقوت أنه روى عنه ثابت بن حزم السرقسطي وغيره ١٠ﻫ فقد اتفقت [١٦] رحلة ثابت الى المشرق سنة ثمان وثمانين ومائتين وشاركه في الرحلة والسماع ابنه قاسم ومن هنا يتضح ان الهجري لم يتجاوز المائة الثالثة فانه عاش بلا شك الى بعض عقودها الناجزة . ولا يبعد أن نقدر أنه عاش نحو ثمانين سنة وتوفي بناءعلى ذلك سنة ست وتسعين ومائتين أو نحوها .

شيوخه ومصادر علمه : أخذ الهجري غالب علمه من أعراب البادية ورواتها وحداتها وأما غيرهم من أعلام الحواضر فرأيناه قلما يروي وقد تقدم أنه لقي ابن الأعرابي وأبا ذكوان على أنه ينقل أحيانا عن كتب بعض الأعلام فقد نقل من « المصنف » فقرة ولعله أراد « الغريب المصنّف » لأبي عبيد القاسم بن سلام (المتوفي سنة ٢٢٤ ﻫ) وحكي عن الفراء مرتين وذكر كتاب لغات القرآن [١٧] له مرة واحدة فقط . وأحال على أبي محلم [١٨] وكتاب الأنواء له في موضع واحد كما أحال على التوزي [١٩] (المتوفى سنة ٢٣٣ ﻫ) دون أن يسمي مؤلفاً له .

وصف نوادره : تتفق طريقته في أماليه ونوادره تماماً بمنحى المؤلفين المعروفين في حقل الأمالي والنوادر . فبينما هو يأخذ في انشاد قصيدة أو مقطوعة شاردة تعن له شتى المناسبات يؤديه بعضها الى تفسير غريب الشعر وعويصه وبعضها إلى سرد الأنساب وإحصاء البطون والفصائل . وبينما هو يفري فريه في ذلك تداعيه الفكرة مرة إلىأن يأخذ في تحديد بعض الأماكن والمياه والجبال ومرة أخرى الى أن يتفاوض في وصف ما ينبت بالبراري والسهول والحزون من ضروب النبت والشجر .

وبعد اللتيا والتي فان كتابه من الأمهات العتيقة في اللغة وصنوف الأدب

يحتوي على مادة غزيرة معظمها يستدرك بـه على مختلف المواد المضبوطة في الكتب المأثورة عن اليزيدي والقالي والزجاجي وأمثالهم ، كما انه يمثل في حقل أسماء الجبال والأمكنة والمياه في جزيرة العرب باشياء غير يسيرة تضاف إلى جملة ما ورد في « معجم ما استعجم » للبكري و « معجم البلدان » لياقوت وما الىذلك من كتب وصحف ورسائل شتى متداولة في صفة جزيرة العرب .

وبالجملة فنستطيع أن نتبين أن الهجري في الغالب يزودنا في كل واحد من الصنوف المتقدمة بمادة لا نكاد نعثر عليها عند غيره من كبار المؤلفين .

ومن هنا نجـــد القسم المشترك بينهم وبينه قليلا جدا . ونراه فيما ينشد ويروي لا يكاد يتعرض لمشاهير شعراء الجاهلية والاسلام إلا إذا وجد في وطابه شيئاً نادراً مما يعزى إلى بعضهم .

انه أورد مثلا لامرىء القيس بيتاً جديدا رواه عن[٢٠] أبي الغطمش فقال: وزاد لامرىء القيس بيتاً لم أسمعه إلا منه، بعد قوله - فيا عجبا من رحلها:—

وواعجبا مني ومن حال ناقتي ... وواعجبا للجـــازر المتبذل

وقد كان شرط عليهن إذا نحر ناقته أن تقوم عنيزة متبذلة بجزرها فلهذا زاد البيت » - اهـ .

وكذلك أنشد لعنترة بيتين فقط همـا :

فان ابن سلمى فاطلبوا عنده دمي ... وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دم
يروح ويغدو في جبال حريزة ... باعطاف سلمى حيث لا يتهضم

ويلاحظ أنهما في الأغاني [٢٢] مع بيت ثالث هكذا :

وان ابن سلمى عنده فاعلموا دمي ... وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي
إذا ما تمشى بين أجبال طيىء ... مكان الثريـــا ليس بالمتهضم
رماني ولم يدهش بأزرق لهذم ... عشية حلوا بـــين نعف ومخرم

وأنشد لمزاحم العقيلي فائيته[٢٣] الطويلة في مائة بيت وأربعة أبيات على أننا

لم نقف منها على أكثر من عشرين بيتاً وبيتين (٢٤) ولعل هذه الثلاثة التالية من روايته بقية من لامية (٢٥) مزاحم الطويلة التي نشرها الدكتور كرنكو نقلاً عن بعض المجاميع المخطوطة :

إذا سمعت لهو الحديث تنبرت شموس الصبا مزهوة لم تذلل
كما التفتت منسوبة أعوجيّة لحس لجـام راعها متصلصل
وان جدوى الجن يستعلنوا لها وإن ير جدوى راهب الطور يغزل (٢٦)

وصف المخطوطين : وصل الينا من نوادر الهجري جزءان ضخمان فقط وهما من أجل النسخ الخطية أحدهما في دار الكتب المصرية (تحت رقم ٣٤٢ خصوصية) والآخر عندنا في خزانـــة المجمع الأسيوي في كلكتا (برقم ١٠٢٤ ع) . وكلاهما سيان خطأ ورسماً وقلماً ، لا مغايرة بينهما أصلاً باعتبار شيء من ذلك . وقـــد انتسخها الناسخ بخط الثلث النسخي لخزانة واحدة وهي خزانة السيد الأجل الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي . فقد ورد على صفحة الغلاف لكل واحدة منهما :

« كتاب التعليقات والنوادر عن أبي علي هرون بن زكريا الهجري »

وجاء في الوسط هذه العبارة :

« للخزانة السيدية الأجلية الأفضلية الجيوشية السيفية العاصرية[١] الكافلية الهادية عمرها الله بدايم العز (٢٧). وفي نسخة الدار وحدها فوق هذه العبارة المتقدمة عبارة اخرى بقلم مختلف وهي :

« للخزانة السعيدة الفايزية عمرها الله بدايم العز والبقاء » .

والظاهر أن هذه النسخة فارقت أختها فانتقلت الى الخزانة الفايزية (٢٨) بعد أن كانتا معاً تحوزهما الخزانة الافضلية الجيوشية وأما الاخرى فلا ندري أين ترامت بها الليالي غير انه اتفق لهما بعد ذلك بزمن غير قصير ان تتواصلا

---

(١) : الناصرية (العرب) .

مرة أخرى كما يتضح من هذه العبارة التي نصها « طالعه ونقل منه فوائد الفقير الى الله تعالى احمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن أحمد القيسي » — اه . ورد هذا التوقيع على وجه النسختين وهو بخط ابن مكتوم تاج الدين ابي محمد (٢٩) القيسي الحنفي الذي لازم أباحيان الأندلسي دهراً طويلاً ومن أغر تصانيفه « التذكرة » في ثلاث مجلدات سماها (قيد الأوابد) ربما يخطر بالبال أنه أثبت في هذه التذكرة أشياء نقلها عن المخطوطتين مباشرة ولكن هذه التذكرة صارت أثراً بعد عين وتوفي ابن مكتوم في رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

وعلى كل حال فان المخطوطين بقيا مؤتلفين في ظرف القرن السابع والثامن الى أن طوحت بها الطوائح مرة أخرى فتفرق شملها بأن [بقي] أحدهما في مصر والآخر ترامت به الأسفار حتى القى عصا التيسار بالهند النائية عن مهد العروبة ولكنه فيما يظهر لم يصل اليها قبل استيلاء عملاق الاستعمار على مقاطعة ثم على غيرها من أصقاع الهند . فدخل ذاك المخطوط في حوزة الخزانة التابعة لكلية فورت وليام في كلكتا .

وأخيراً لما انتقلت طائفة كبيرة من ذخائر كلية فورث (٣٠) وليام الى خزانة المجمع الآسياوي فوصلت هذه النسخة العتيقة من كتاب التعليقات والنوادر الى مستقرها في المجمع سنة ١٨٣٦م .

هذا وقد ثبت على وجه النسختين خطوط شتى وتوقيعات أخرى لسنا بصدد بيانها الآن الخطية والمزايا الرسمية ولكن ذلك موعد آخر في مقدمتي عليهما فقد هيأتها بتوفيق الله تعالى للطبع والنشر .

قضية ترتيبها : ولقد ثبتت عندي نتيجة للبحث عن القرائن والشواهد التي نستند اليها أمور ثلاثة :

١ — أولها ان الجزئين المخطوطين ليس أحدهما عين الآخر بل انهما صنوان

شقيقان من أصل عتيق يتواشجان سدى ولحمة ويمثلان في حد ذاتهما جزئين تامين من الكتاب غير انهما لا يخلوان من انسلال وريقات عديدة من هنا وهناك لطول العهد وقدم الزمان .

٢ – وثانيهما ان الجزئين يعوزهما قسم مفقود عسى أن يكون الجزء الأول من الكتاب .

٣ – وثالثها ان الجزء المحفوظ في كلكتا متقدم قطعا على الجزء المحفوظ في الدار [١] ولعلهما على الولاء الثاني والثالث من أجزاء الكتاب بناء على أن يكون الكتاب بتمامه في ثلاثة أجزاء .

صحة انتمائها إلى الهجري : ومما يجب الانتباه إليه أنه ورد في مواضع من الجزئين قال أبو علي كذا أو « أنشد أبو علي » كذا ، فيتبادر إلى بعض الأذهان بادىء ذي بدء أن الهجري لم يكن مؤلف الكتاب وما كان له في صنعه يد ولا اصبع . لكنني لا أرى هذا الرأي سديدا ولا مستقيما وذلك لأن النقل إلى الغيبة من الأساليب الشائعة التي تعودها المتقدمون ولذلك أمثلة كثيرة في التآليف القديمة التي لا يتطرق أدنى ريب في صحة انتمائها إلى مؤلفيها . ومما يفيد القطع في الباب أنه صدر بعض فصول الكتاب بهذا العنوان الذي نصه وفصه – « ما سمعه أبو علي من أبي نافذ الخفاجي وعرضه عليه بعد سماعه منه وصححه بالمدينة (٣١) فالصواب إذن أن الهجري هو الذي جمع وأوعى ضروب علمه مما حمله عن الأعراب في هذا السفر الجليل وباشر تأليفه وتقييده ثم إنه أملى على بعض من رغب في ذلك واستملاه .

رواية الكتاب : انني مع افراغ وسعي في البحث لم أقف على من روى الكتاب عن الهجري وعلقه عنه ولا على طريق الرواية التي وصل بها تفاريق

---

(١) لعل الصواب المكس ، ذلك أننا نجد في جزء كلكته بيتاً واحداً من مرثاة ماعز بن مالك . بينا نجدها في جزء الدار المصرية ١٨ بيتاً ، فهو –فيما يظهر– وجد ذلك البيت بعد إيراد القصيدة فاستدركه .

مادته إلى طائفة من الأعلام الجلة الذين سيأتي ثبت أسمائهم ولكن الصواب بلا امتراء أن الكتاب ما زال معدوداً في المصادر الأصلية الموثوق بها كما أن رهطاً من علماء الأندلس اطلعوا على قيمته العلمية وسبقوا اخوانهم المشارقة إلى الاستسقاء منه ولا يستغرب بناء على ذلك أن نظن بأن الذي جلب الكتاب إلى الأندلس رواية عن مؤلفه مباشرة هو ثابت بن حزم وابنه قاسم بن ثابت فقد رأيناهما (٣٢) أدخلا كثيراً من كتب الحديث واللغة في الأندلس ولقد نصوا على أنهما أول من أدخل فيها كتاب العين ــ .

الذين وقفوا عليه واستقوا منه : يظهر ما حظى به الكتاب من التقدير والأهمية على مر العصور والأجيال ، من الثبت الآتي لأسماء جماعة من علية العلماء الذين اعتمدوا عليه واستقوا منه بلا واسطة أو بالواسطة وهم :

ابن سيدة ، علي بن اسماعيل الأندلسي (ــ ٤٥٨ هـ)
أبو عبد البكري ، عبد الله بن عبد العزيز (ــ ٤٨٧ هـ)
أبو الوليد الوقشي ، هشام بن أحمد (ــ ٣٨٩ هـ)
ابن فتحون ، أبو بكر محمد بن خلف (ــ ٥١٩ هـ)
أبو محمد الرشاطي ، عبد الله بن علي اللخمي الأندلسي (ــ ٥٤٢ هـ)
ابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك (ــ ٥٧٨ هـ)
ابن بري اللغوي أبو محمد عبد الله المقدسي المصري (ــ ٥٨٢ هـ)
ابن الأثير الجزري المبارك بن محمد (ــ ٦٠٦ هـ)
ابن منظور الافريقي محمد بن مكرم (ــ ٧١١ هـ) (١)
أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف (ــ ٧٤٥ هـ)
ابن مكتوم القيسي ، أحمد بن عبد القادر (ــ ٧٤٩ هـ)
علاء الدين الحافظ مغلطاي بن قليج (ــ ٧٦٢ هـ)
ابن حجر الحافظ ، أحمد بن علي العسقلاني (ــ ٨٥٢ هـ)

(١) قد تكون النقول التي في اللسان عن الهجري مما أورده ابن سيده فنقله ابن منظور بدون اطلاع على مؤلفات الهجري .

بدر الدين الحافظ ، محمود بن أحمد العيني (– ٨٥٥ هـ)
نور الدين السمهودي ، علي بن عبد الله (– ٩١١ هـ)
المرتضى البلجرامي محمد بن محمد أبو الفيض الحسيني الهندي ثم الزبيدي (– ١٢٠٥ هـ)[1] .

أمثلة النصوص المنقولة عن الهجري : أما النصوص التي أورد هؤلاء الجلة تفاريقها في كتبهم نقلاً عن الهجري فنكتفي منها بالاشارة إلى بعض الشوارد اللغوية فقط وهي مما عثرت عليه في بعض ذينك الجزئين المخطوطين فلتراجع الكلمات التالية في اللسان والتاج والمحكم :

التلفة : – الهضبة المنيعة التي يغشى من تعاطاها التلف عن الهجري وأنشد :

الا لكما فرخان في رأس تلفة ... اذا رامها الراقي تطاول نيقها

(اللسان ٧ : ٣٨٨ ومستدرك التاج ٦/٥٠)

الحومل : السيل الصافي عن الهجري وأنشد :

مسلسلة المتنين ليست بشثنة ... كأن حباب الحومل الجون ريقها

(اللسان / ١٣ – ١٨٩ وتاج العروس / ٧ / ٢٩١)

الخوشق : من كل شيء الردىء عن الهجري (اللسان ١١ : ٣٦٧ وانظر تاج العروس).

الذفاف : اذففت وذففته ، أجهزته عليه والاسم الذفاف عن الهجري وأنشد :

وهل أشر بن من ماء حلية شربة ... تكون شفاء أو ذفافا لما بيا

(اللسان ١١ : ٩ والتاج ٦ : ١١١)

عضنج : عبد عضنج ضخم ذو مشافر عن الهجري (المحكم ٢ : ٣٠٠ واللسان ٣ : ١٤٩) .

---

(١) قد يكون اطلع على مؤلفات فيها نقل عنه فنقل عنها .
ويضاف إلى هؤلاء : الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد (٢٨٠ – بعد سنة ٣٣٤) مؤلف « صفة جزيرة العرب » و « الاكليل » و « شرح الدامغة » وفي هذا نصّ عن الهجري ذو قيمة تاريخية (أنظر كتاب أبو علي الهجري) .

العلفى : مقصور ما يجعله الإنسان عند حصاد شعيره لخفير أو صديق وهو من العلف عن الهجري (المحكم ٢ : ١١٥ واللسان)

عين : عان لهم كاعتان عن الهجري وانشد لناهض بن ثومة الكلابي :

يقاتل مرة ويعـــين أخرى ففرت بالصغار وبالهوان

(المحكم ٢ : ١٨٠ واللسان ٧ — ١٧٨)

والبيت من كلمة طويلة لناهض وردت في المخطوط الاسيوي .

كعمز : تكعمز الفراش انتقضت خيوطه واجتمع صوفه عن الهجري . (اللسان : ٢٦٨) .

مشش : المشامش الصياقلة عن الهجري ولم يذكر لهم واحد أو أنشد :

نضا عنهم الحوك اليماني كما نضا عن الهند أجفان جلتها المشامش

قال وقيل المشامش خرق تجعل في النورة ثم يجلى بها السيف اهـ (اللسان ٨ : ١٤٠) .

قلت : الشاهد من قصيدة ناهض بن ثومة التي وردت بطولها في القطعة الاسيوية .

من اطلع عليه من المعاصرين : أما من اطلع من علماء القرن الحاضر على قطعتي الكتاب أو أحديهما مباشرة فكان رائدهم الأول ، فيما أعرف الأستاذ عبد العزيز الميمني ولم يقف على نسخة كلكتا . واطلع الأستاذ أحمد راتب النفاخ [٣٣] على نسخة الدار فقط ونقل وانتشل ما ورد فيها من شعر ابن الدمينة الخثعمي ، ولقد استقى منها الأستاذ حمد الجاسر من علماء نجد في بعض مقالاته [٣٤] ثم انه اطلع على مخطوط [٣٥] كلكتا [١] إذ قرأ مقال هذا العاجز حول ما لم ينشر [٣٦] من شعر حميد بن ثور الهلالي .

ومنهم الأستاذ الدكتور محمد زبير الصديقي ، أحد علمائنا الكبار فانه قدم إلى المؤتمر الثاني والعشرين للمستشرقين المنعقد سنة ١٩٥١ م في استنبول ،

(١) بل وصفت المخطوطة في مجلتي « اليمامة » ج ١ ص ٣٦ سنة ١٣٧٢ هـ (أغسطس سنة ١٩٥٣ م . وصفاً يعتوره القصور والخطأ .

مقالاً موجزاً وصف فيه المخطوطين مع الملمة بترجمة الهجري ولكنه ملأ مقاله ذلك بآراء مستغربة . وللتنبيه عليها موعد آخر .

ومسك الختام أن أقول أنني لما أزمعت على إخراج الكتاب وجلائه على الناس بذلت وسعي في تحقيقه اعتماداً على الجزئين الوحيدين ولا يتسع الوقت لوصف خطتي وعملي في اعدادهما للنشر – وقد تجمعت عندي في أثناء البحث والتنقيب عن نصوصها نقول كثيرة صحت وثبتت عن الهجري وجاءت في نحو خمسين صفحة أو أكـثر وليس من المعقول أن ننسب هاتيك الفصول المتكاثرة كلها إلى ذينك الجزئين اللذين سقطت وريقات منهما من هنا وهناك بل الصواب ان غالبها ينتمي إلى الجزء المفقود من الكتاب .

ومهما يكن الأمر فانه قد تهيأ الكتاب عندي في جزئين ضخمين يثلثهما جزء لطيف غير طفيف . هذا ولعل الله يمهد السبيل لنشر هذه الأجزاء جميعاً وهو على كل شيء قدير وبالاجابة جدير .

مراجع البحث :

(١) سمط اللالي (القاهرة ١٩٣٦) ص ٤١٠ .

(٢) مجموع المباحث العلمية ص ١٠ (دائرة المعارف العثمانية ، دكن) .

(٣) ظهور علي : الفهرس القديم لمخطوطات المجمع الاسياوي ص ١٠ رقم ١٠٢٤ (كلكته ، ١٨٣٧ م) والمرزا أشرف علي: الفهرس الجديد لمخطوطات المجمع الاسياوي (كلكتا، ١٩٠٤م) ص ٩٣ .

(٤) ياقوت الحموي معجم الأدباء (٧ : ٢٣٤) رقم : ١٤١ (طبعة مرجليوث) وأيضاً (١٩ : ٢٦٢) رقم : ٩٧ (نشرة دار المأمون) .

(٥) السيوطي : بغية الوعاة (مصر ، ١٣٢٦ ﻫ) ص ٤٠٢ .

(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون (٦ : ٣٨٧) رقم : ١٤٠١٢ (طبعة فلوجل) أيضاً (٢ : ١٩٨٠) (الطبعة الحديثة) .

(٧) Brock. Gal, Suppt. II ٩١٩ Lieden ١٩٣٨ .

(٨) راجع له طبقات ابن المعتز ص ١٤٩ (تذكار جب) ، والأغاني (٢٠ : ١٨٣ – ١٨٨) طبعه الساسي) ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٥٧ (ط . كرينكو) والجمهرة لابن حزم ٢١٤ ونوادر الهجري (خط ٢٧٨ ب والدار ٢٤٧) .

(٩) نوادر الهجري (خط) ص ٢٠٧ .

(١٠) الأغاني (١٢ : ٣٢ – ٣٨) .

(١١) نوادر الهجري (خط) ص ١٨٣ .

(١٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ١٤٠ .

(١٣) انظر ابن النديم : الفهرست ص ٦٠ ؛ والحموي : معجم الأدباء (١٦ : ٢٣٦) (طبعة دار المأمون) .
القفطي : انباه الرواة (٣ : ١٠) ، السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٧٥ .
(١٤) انباه الرواة (٣ : ١٢٨) رقم . ٦٤٥ والمراجع المذكورة بالهامش .
(١٥) توفي ثعلب سنة احدى وتسعين ومائتين .
(١٦) ابن خير : الفهرست ص ١٩٣ .
(١٧) عند ابن النديم : كتاب اللغات . راجع الفهرست (ص ٩٨ – ١٠٠) ط ، مصر .
(١٨) المرجع الآنف : ص ٦٩ والمرزباني : معجم الشعراء ص ٥٢٨ (ط . كرينكو) .
(١٩) طبقات الزبيدي ص ١٠٠ .
(٢٠) نوادر الهجري (خط) ٣٥٣ (الدار) .
(٢١) المرجع السابق : ٢٣٠ (الدار) .
(٢٢) الأغاني (٧ : ١٤٥) .
(٢٣) نوادر الهجري (خط) ٤ ب – ٩ ب .
(٢٤) افريتس كرنكو : بقية شعر مزاحم رقم ١٥ (لائيدن) .
F. Krenkow : The poetical Remains of Muzahim, Lieden, 1920
(٢٥) المرجع الآنف رقم ١ .
(٢٦) نوادر الهجري – (خط) ٢٧٣ .
(٢٧) هذه العبارة مقتضبة مما نعت به شاهنشاه بن بدر الجمالي ، راجع لالقابه (السجلات المستنصرية ص ١١١ وخطط المقريزي ج (٢ : ٣٠٤ وأيضاً ٢ : ٣٠٨) .
(٢٨) هي خزانة الفائز بنصرالله أبي القاسم عيسى، ولي الخلافة سنة ٥٤٩ وتوفي سنة٥٥٥هـ .
(٢٩) راجع بغية الوعاة ص ١٤٠ والدرر الكامنة لابن حجر .
(٣٠) انظر الاستعراض الجيلي للمجمع الاسياوي (بنغالة) (١ : ٢٤ – ٢٥)
(Rejendralal Mitra : Centenary Review of the Asiatic Society of Bengal, I. 24 - 25, Calcutta, 1885) .
(٣١) نوادر الهجري (خط) ١١٧ ب .
(٣٢) راجع طبقات الزبيدي ص ٣٠٩ والفهرسة لابن خير .
(٣٣) انظر ديوان ابن الدمينة ، طبعة النفاخ سنة ١٣٧٩ . وهو دائماً يسمي الكتاب بالنوادر والتعليقات .
(٣٤) راجع مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) : ج (٢٨ : ٣٩٦ ، ٩٢ ، أيضاً ٣١ : ٦٨٩ .
(٣٥) المرجع السابق (٣٧ : ١٠١) .
(٣٦) ثقافة الهند عدد ابريل ١٩٦٠ (مجلس الهند للروابط الثقافية) .
(٣٧) مجموع اجراآت مؤتمر المستشرقين المنعقد باستنبول (٢ : ٢٤٢ – ٢٤٥ لائيدن)
Togan, Z. V. - procedings of the twenty - second Congress of Orientalists, Voll. II (Communications) Lieden, 1957) .

حول نقد :

المجاز بين اليمامة والحجاز

- ٢ -

(تابع ما نشر في ص ١١٠٥ من السنة الرابعة)

بعد ذكر (الدرعية) و(العيينة) انتقل الاستاذ الجنيدل الى ذكر عقبتي (القديّة و(السقطة) ورآهما شيئين كبيرين ، ووقف عندهما ، ووصفهما، وقال عنهما : انهما منفذان مشهوران في جبل طريق من أهم الطرق التي تمر منها القوافل ، والركبان ، الوافدان من أواسط نجد ، الى عاصمة الجزيرة العربية، حقبة من الزمن غير قصيرة .. حتى قال : ولقد حدثني بعض الذين مروا معه في قافلة يبلغ تعدادها خمسمائة بعير فقال : كنا نعتاد المبيت تحته من ناحية الغرب ويبدأ أولنا الصعود معه قبل صلاة الفجر وتطلع الشمس وآخرنا لم يدخله بعد .. الخ أرى ان الاستاذ الجنيدل ، اعطى هذين الممرين من الأهمية ما لا يستحقانه، وطول فيما لا يستحق التطويل ، فهما عقبتان حولهما عقبات، وقد عددناهما فيما عددنا من العقبات الأخرى ، وليسا من الاهمية بالمكان الذي يشير إليه الأخ الجنيدل جل من يمر منهما (الجمالة) ونحوهم وانا اعرفهما تماماً.

والذي يلفت النظر ويؤكد ما سبق ان ذكرناه عن وقوع الأخ الجنيدل في أخطاء كان أولى بالناقد ان لا يقع فيها، ما دام يتتبع سقطات الباحث قبله.. من هذه الأخطاء قوله : وهذا الطريق – يعني القدية – تراه على يمينك حينما تواكب ، او بعد ان تجاوز طريق المزاحمية والغطغط المعبد.

والواقع انك تراه على يمينك قبل ان تصل طريق المزاحمية بمسافة بعيدة ، لا بعده ، كما ذكر الأخ الجنيدل . والذي يحاذي طريق المزاحمية او بعده بقليل – كما يقول الأخ الجنيدل – هو طريق (زبيدة) – كما يسمونه– وبينه وبين القديمة مسافة بها نقب وثنايا .

ولا ادري لماذا اطنب الاستاذ الجنيدل في ذكر (القِدّية) و(السقطة) لم يذكر الطريقين حينما يفترعانها على اي شيء يخرجان من قمة طويق ، بحيث يحدد اتجاهها ، وما هنالك من الاعلام البارزة ، قبل ان ينحدرا على وادي (حنيفة) ؟! ثم ان الاخ الجنيدل التزم تسمية العقبة الاولى بالقدية ، بينما المشهو والاكثر استعمالاً (أبا القد) .

ثم قال الاستاذ الجنيدل : وكذلك الحال بالنسبة لريع سمحان الذي تراه على يسارك حينما تكون في الكيل المائة ، من الرياض ، وهو من أشهر الطرق البرية — الى ان قال — : ومن حيث العموم فبحاثتنا لم يهتم بالطرق الفرعية القديمة والحديثة ، وعلاقتها بالطريق الذي كان يسير عليه.

وقضية الطرق الفرعية يا سعد ، التعرض لها خروج بالبحث المحدد عن نهجه ، وإشغال لسالك الطريق عن متابعة اعلامه ، ووقوف عند كل خطوة لأقول له: انشعب الطريق الفلاني ، وهو يذهب إلى كذا ، ويمر بكذا ، وينشعب منه طريق كذا ، ويتصل بطريق كذا ، وهلم جرا .. ألا يكفي يا اخي ان اشير إلى اهمها كما فعلت في المجاز وحسب ؟ .

لأضرب لك مثلا : ما بين هذه النقطة التي تتحدث عنها ، وما بين (أبا القد) كم هنالك من طريق ينشعب من الطريق الرئيسي ، انها كثيرة جداً ، ولنأخذ — مثلا — طريق (ريع سعدون) ينطلق من الطريق الرئيس من محاذاة (أبا القد) ومن قبله ومن بعده بمعنى أن كل من استسهل ارضاً انطلق معها ، أو كل من طلب القصد في سيره حسب اتجاهه انطلق من الطريق الأم ، حتى تجتمع هذه في (ريع سعدون) وإذا افترعه الطريق ذهب طريق إلى روضة (المحلّية) يميناً وذهب آخر إلى وادي (الاوسط) يساراً واستمر الطريق الرئيسي مع (بطن الحويض) لينشعب منه طريق آخر يميناً إلى روضة (الخرارة) وما اليها وينشعب منه طريقان : احدهما يذهب يميناً إلى أعلى (نساح) فاللسين) فطريق (الرين) وينشعب منه

عشرات الطرق .. والآخر ينحدر مع (الفريشة) ويفضى إلى اوسط(نساح) ويتشعب منه طريق اخرى وهكذا .

ولنقول مثل هذا عن أي طريق نتحدث عنه ، مـــا بين (القدية) و (سمحان) هـــذا الذي تتحدث عنه ، وما أقرب ما بينهما . فكيف إذا انحسرت الجبال ، والكثبان عن الطريق ، وأصبحت بنياته لا تحصى ؟! .

إن الزام الباحث بالتوسع في الحديث عن هذه الطرق ، اعنات ، والزام بما لا يلزم . إلا إذا كان المراد التماساً للنقد ، في المواضيع التي لا يجد صاحبنا فيها نقداً . من أجل اثبات وجوده ، عبر هذا الطريق ؟! .

وعلى النغمة اياها سار الاستاذ سعد فقال : وعندمـــا مر – يقصدني – بطريق (الحيسية) اكتفى بذكر مجرى السيول التي تتفرع منه ، وبلمحة تاريخية وجيزة ، ذكر انه هو الطريق الذي سلكه جيش خـــالد بن الوليد وسلكه جيش ابراهيم بن محمدعلي باشافي غزوه للدرعية – إلى أن قال: ويجدر بهذا الطريق ان يدرس دراسة تفصيلية ، من الناحيتين الجغرافية ، والتاريخية .. وأفاض في تعداد اهمية هذا الطريق ومكانته .

ولا ادري ماذا يريد الاستاذ الجنيدل أن اقوله ، اكثر مما قلته عن هذا الطريق ، الذي يبعد عن خط سيرنا مسافات ، والذي لو افضنا في الحديث عنه ، من الذاكرة فقط لاحتجنا إلى بحث كامل ؟ أريد أن أقول ان هذا الطريق تتجمع فيه عدة طرق من الشمال ، والجنوب ، والغرب .. وكل واحد منها له حديث طويل ، وتلتقي هذه الطرق في مكظم (شعب الحيسية) (الاحيسي) ما بين خشمي (خرشا) و(البركة) في منطقـــة تسمي (الهيش) حيث توجد صيران من النخيل العالقة في هذه المنطقة بدون غرس ، ولا سقيا . وتوجد سلان من السلم ، وحراج من الطلح ، وتوجد بئر عليهـــا حام يحمي الأشجار ، من ايدي المحتطبين والمخربين .. واذكر امتداد هذا الطريق بين جبلي (الاحيسي) حتى الثنية المسماة باسمه واذكر ثنية (بوضة) وثنية (غرور) وثنية (ابا الهشم) ثم انحدر ماراً (بالعيينة) و(الجبيلة) و(عقرباء) وهكذا الى

(الرياض) في وصف جغرافي يستوعب صفحات كثيرة .. ثم اعود الى الجانب التاريخي ، فأفيض فيه باسطاً أو مختصراً ، ليستوعب هذا الجانب مثل ما استوعب الجانب الذي قبله وكذا .. اين بحث من يصف طريق الحجاز يا أخا العرب من هذا ؟ وما هذه العلاقة ووجه الشبه ؟ ألا يكفينا حينما مررنا به ، ان قلنا عنه : لمحة جغرافية ، وتاريخية موجزة ، وما كان يقتضينا منهج البحث ذلك لولا اننا نرى فوهة الفج على بعد حوالي عشرة اكيال.

ويا ليت الأخ الجنيدل اكتفي بالمطالبة بالبسط في طريق (الحيسية) ثم وقف عند هذا الحد .. اذاً لكان الأمر محتملاً ، بل أمعن ووضع عنواناً لوادي (ابي قتادة) وقال : حينما ننكب (الميركة) عن يميننا ، وجبل قرادان عن يسارنا ، ويتقدم بنا الطريق ، ونخلف أرض البطين ، وجبل طويق يسايرنا من اليمين ، والصفراء من اليسار ، تبدو لنا هضبة الظعينة ، برأسها الأشقر ، كطليعة لجبل عريض ، وتبدو لنا معالم بلدة البرة ، وحينما نحاذي الظعينة يكون طريق (ابو قتادة) على يميننا ، وهو ثنية تكبد في جبل طويق ، إلا أنها تسمح للسيارة بالعبور كما تسمح للابل المثقلة ، وتبدو معالم هذا الطريق من ريع الحجاج ، الذي ينفذ بين هضبة الظعينة وجبل عريض ، ثم يتجه نحوالشرق ، تاركاً بلدة البرة يميناً منه ، فينفذ مع ثنية ابي قتادة ، ثم يتسهل منحدراً على شعيب (ابو قتادة) .. الخ ومضى الأخ الجنيدل شارحاً ما يعرفه من اعلام هذا الطريق ، حتى الرياض . فما هي علاقة طريق الحجاز بهذا الطريق ؟! ان الثنية التي يذكرها تبعد عن طريق الحجاز بما لا يقل عن عشرين كيلاً ، ثم هي ايضاً لا ترى من طريق الحجاز ، فكيف بوادي ابي قتادة وما بعده ، الذي كلف الاستاذ الجنيدل نفسه بوصفه ، فأخطأ في الوصف ، وقصر في إعطاء الحقيقة ..

وقوله: حينما نترك الميركة يميننا ، وجبل قرادان يسارنا .. ليس فيه دقة في الوصف . فمعقول ان يحدد بجبل قرادان من اليسار ، وان كان بينه وبين الطريق مسميات وهي امتداد رياض سمحان . لكن قوله : الميركة يميننا ، اين انت والميركة يا أخا العرب ، بإمكانك ان تصف بما دونها ، فتقول : شعب

(غددة) او (الحجيلاء) او (الصفراء) المحاذية لهما . أما ان تصف بهذا الوصف فكأنك تقول وانت سالك طريق الحجاز: تركت الدوادمي يساري، و(عرجا) يميني. وهو وصف بين الخطأ لبعد ما بينك وبين عرجا من اليمين ، وقرب ما بينك وبين الدوادمي من اليسار .

وقولك : تبدو لنا الظعينة ، بعد ان نخلف أرض البطين ليس بدقيق ، فالظعينة تبدو لك قبل ذلك بكثير . وفيما بين الطريق وثنية أبي قتادة ، تتشعب طرق كثيرة ، ليس طريقها الأم ما بين طريق الحجاز وثنية أبي قتادة ، فهذا الطريق ـ يا حضرة الأخ الفاضل ـ لا يسلكه إلا من يريد وادي أبي قتادة ، اما من يريد الرياض فما الذي يحمله على سلوكه ، إلا من يفضل أن يكون طريقه (أبعد وأوعر) اما سليم التفكير والتدبير ، فلن يسلك هذا الطريق، وتذكر يا سعدانك حينما سلكته معرفقتك الخ.. فلا بد ان يكون هنالك دافع يحتم مرور (حريملاء) او (القرينة) او (ملهم) . او انك تريد ان تمثل ذلك السائح الهروي . أو ان ابن زريق أورثك خطته . ثم ان بين طريق الحجاز وثنية ابي قتادة اعلاماً ضربت عن ذكرها صفحاً ، فهنالك (السحَق) وهنالك (صفراء الثرماني) و (الثرماني) نفسه وهضبة (ام الرحال) تتركها يمينك .

ثم ان بين (المبركة) التي ذكرتها آنفاً ، وبين ثنية (أبي قتادة) ثنيتين تفترعان جبل طويق هما ثنيتا (فهرين) و(ام الغبطان) لم تذكرهما ما دمت تعنى عناية فائقة بالطرق .

وحينما انحدرت مع وادي ابي قتادة ، صادفتك طرق تفترع جبليه ، يميناً وشمالا لم تذكرها ، فمن يمينك لم تذكر طريق (حريملاء) – (صلبوخ)– (الرياض) المعبد، الذي يخرج مما يلي (القَرينة) بل ذهبت تمثل ذلك الذكي الحبشي ، الذي قيل له : اين اذنك ؟ فرفع يده اليمنى، وتخطى اذنه اليمنى، ورأسه ، ليضع يده على شحمة أذنه اليسرى ويهزها . ذهبت تنحدر مع أبي قتادة – رفيقك الحبيب – لتصل الرياض عن طريق قوس راسع القطر ، في إمكانك ان تختصره بثلث المسافة.. ولكنك لم تفعل ، بل ولم تكتف بل جئت

تطالب صاحب الحجاز بما لا يستطاع . وفاتك المثل : اذا أردت ان تطاع فسل ما يستطاع .

اما الطريق التي تتركها يسارك حينما تنحدر مع ابي قتادة فهي على الترتيب طريق (مغطيّة) وطريق (حوّجان) وطريق (الشعبة) وطريق (المليح) .. لم تذكر من هذه شيئاً ..

وقلت : فيمر – يعني الطريق – (بجريملاء) (فالقرينة) ثم يعبر بلدة (ملهم) بعد ان يجوز وادي (الخنقة) الواقع بين ملهم والقرينة .؟ ويفهم من قولك يا سعد ان وادي(الخنقة) هذا واد غير الوادي الذي تسير معه – ابو قتادة – وانه واد يعارض هذا الوادي ، أو يأتي بعده .. والصحيح أنه لا وادي آخر غير وادي (ابي قتادة) . اما (الخنقة) فهي تطلق عادة على الحراج ، وملتف الأشجار، في الأودية، كخنقة (القويعية) وخنقة وادي حنيفة .. وهكذا، وكانت هذه المنطقة – ما بين القرينة وملهم – يوماً ما كذلك . فلا واد جديد لدينا يا سعد .

ثم قال الاستاذ الجنيدل : وبعد ان يتجاوز الطريق معالم (ملهم) يعبر أرضاً مستوية تسمة (المفقعة) وفي ناحيتها قور تسمى قور حزام ..

فالأرض هذه يا أخي سعد ليس اسمها (المفقعة) وانما اسمها (الفاقعة) وتجاوزت قبلها وادي (صلبوخ) ولم تذكره . والقور قور خزام بالخاء لا حزام بالحاء كما ذكرت – ويجوز أن يكون هذا غلطاً مطبعياً – حزام بدل خزام .

والفاقعة يا سعد وادي ينحدر من شمالي قمة (سدحة) وجنوبي وادي (صلبوخ) وتسمى هذه الأرض باسمه . ثم قال الاستاذ الفاضل : وبعد ان يجوز هذه المعالم يواكب (بنبان) وبعد (بنبان) يمر (بمغرزات) فمدينة (الرياض).

فبين (بنبان) يا سعد ، وبين (مغرزات) مسميات لم تذكرها ، ما دام هذا الطريق مما استهواك ذكره .

ثم قال الاستاذ سعد : ولم يتعرض الاستاذ عبـد الله لذكر هذا الطريق رغم توغله في بحث هذه الناحية .

ولا أقول لأخي سعد حيال هذا إلا كما يقول المثل : رب ملوم لا ذنب له ، فما شأن من يتحدث عن طريق الحجاز على خطة رسمها ، أن لا يتحدث إلا عما يمر به أو يراه ، ما شأنه - وشأن طريق أبي قتادة ، والفاقعة ؟ ألأن آخانا سعداً قد مرّ منه مرّتين ، وأبى إلا أن يقحمه هنا ، رغم أنـه خبط وخلط في وصفه . يا للنقد ما أرخصه !!

بعد قضية (أبي قتادة) و (الفاقعة) انتقل الأستاذ الجنيدل الى موضوع جديد هو (ثرم) أخذ عليّ قولي عن ثرم هذا : وهو الذي عنـاه زياد بن منقذ في قوله :

والوشم قد خرجت منه وقابلها   من الثنايا التي لم أقلـها ثرم

على ما قرره صاحب المعجم . اهـ .

أخذ عليّ الأستاذ هذا ، لأن مسيرة زياد بن منقذ حينما خرج من الوشم ، لا تتفق وما أقول ، حيث انه قاصد بلد (أشى) في (سدير) أما (ثرم) فهو ناءٍ عن طريقه . وأفاض الأستاذ الجنيدل في شرح ذلك وأطنب .

وللاجابة على هذا نقول :

أولاً — اننا تابعون لصاحب معجم البلدان في قوله ، وهو ينقل عن ثقات هم أعلم بحال البلاد وأهلها آنذاك منا حينئذ .

ثانياً — من يقول : ان زياد بن منقذ حينما اعتسفت راحلته خل النقا كان قاصداً (أشيّ) ؟ فسياق القصيدة لا يعطينا هذا ، فهو بعد أن قال :والوشم قد خرجت منه . البيت قال :

وحبذا حين تمسي الريح باردة   وادي أشى وفتيان به هضم

الى أن قال :

يا ليت شعري متى أغدو تعارضني   جرداء سابحة أم سابح قـدم
نحو الأميلح أو سمنان مبتكراً   في فتية فيهم المرّار والحـكم

فالذي يجعله يذكر (ثرم) بعد (خل النقا) هو الذي يجعله يـــذكر (الأميلح) و(سمنان) بعد (أشيّ) وهما أبعد من (ثرم)عن (أشيّ). فهو في قصيدته ليس له خط سير معروف ، بل هو يتشوق ، ويحن الى بلاده، ويذكر ما يذكر من معالمها . فلماذا نفترض خط السير ، ونردّ قول صاحب المعجم ، ونصدف عن هذه الأدلة ؟!

ثالثاً – قبل أن ينشر نقد الأخ الجنيدل كنت قد كتبت الى مجلة «العرب» فيما كتبته من الاستدراكات ، بحذف الجملة التي قلتها عن ثرم ، حيث تبين لي رأي في معنى البيت وهو ان قوله :

والوشم قد خرجت منه وقابلها من الثنايا التي لم يقلهـــا ثرم

على رواية من يرويه هكذا : يقلها ثرم .

ان في البيت استخداماً ، أراد بالثنايا الأولى : ثنايا جبل طويق ، وأعاد الضمير عليها بمعنى ثنايا الانسان ، التي يعيبها الثرم . أما هذه فلا يعيبها ثرم عنده ، حيث هي محببة إليه . وعلى هذا فلا دخل (لثرم) المكان في البحث . سواء ثرم الذي ذكره صاحب المعجم ، أو ثرم غــير المعروف الذي ذكره الأخ الجنيدل،وقال : انه إحدى ثنيتي النظيم أو دهين .

وذكر الأخ الجنيدل (الخلول) التي يجتاز منها السفر نفود عريق البلدان فذكر (خل النقا) و (خل السلم) و (خل القصب) و (خل رحين). وقال: انه لا يوجد خل باسم (خل الجُريفة) – كما أوردت ذلك – .

والواقع ان أهل المنطقة يقولون : (خل رحين) و (خل الجريفـــة) فكيف يستنكر الأخ الجنيدل هـذه التسمية ، ويقول : انهـا غير معروفة . وهذا اما جهل بالواقع ، واما تجاهل له . فتسمية الخل الواحـــد بأكثر من اسم ، موجودة غالباً في أكثر هذ الخلول ، فهم يقولون (خل السنيدي) و (خل ثرمداء) و (خل الاثلة) و (خل الجريفة) أربعة خلول لم يذكر الأخ الجنيدل منها شيئاً .. لماذا ؟ لا أدري !!

كما ان الاخ الجنيدل ذكر الثنايا التي تفترع جبل العارض ، شمالي الحمادة ، ولم يذكر بعضها ، سواء كانت تحمل أكثر من اسم ، أو تحمل اسماً واحداً . فلم يذكر (المقرح) و (أم هشم) و (الصفيحة) و (عقبة العودة) وكلها ثنايا تجتازها المطايا . وهناك ثنايا (أبا الهيال) و (دلادل) و (الشفيمي) و (القممي) .. هذه عقاب للراجل وللدواب الخفيفة ..

ومن هذا انتقل صاحبنا الى معنى جديد فقال : وقبل أن نغادر قرقرى فانه يجدر بنا أن نلفت نظر القارىء الى اننا اكتفينا بما نشرته (مجلةالعرب) عن بلدة ثادق .

ونحب أن نسأل الأخ الجنيدل : ما علاقة (ثادق) بهذا الطريق لكي تكتب عنه في نقدك هذا لو لم تكتب عنه مجلة العرب ؟ ؟ أين (ثادق) من هذا الطريق ؟ كم المسافة بينهما ؟ ثم ان هناك بلداناً وأعلاما بين ثادق وبين الطريق لم تذكرها مجلة العرب ، وهي أقرب الى الطريق من ثادق ، لمـــاذا لم تذكرها أنت ؟ هنـــاك بلدة (رغبة) وبلدة (الرويضة) و (مشاش المراطيب) ، كلها بين الطريق وبين (ثادق) ، لماذا لم تذكرها حينما كفتك مجلة العرب ذكر (ثادق) ؟ ؟ وهنالك رياض – جمع روضة – تحمل شهرة جديدة في المنطقة وتقع بين (ثادق) وبين الطريق ، لماذا لم تذكرها ؟ هناك (روضة آل كثير) ، و (روضة البردان) و (روضة أم الشقوق) ..

وهناك (نفود) يسمى (نفود رغبة) متحيزاً في مكانه ، بينك وبـــين (ثادق) لماذا لم تذكره ؟

وهنالك منطقة أثرية ، توجد بها آثار ، وآبار ، ومخلفات حضارة ، تقع بين الطريق وبين (رغبة) ، يقال لها : (الفقير) لماذا لم تذكرها ؟

وما دامت عنايتك بالطرق فائقة جداً ، لماذا لم تـــذكر الطرق التي بين (ثادق) وبين طريقنا هذا ؟ فهنـــاك الطريق الذي يأتي بين طرف جبل (عريض) الشمالي وبين (طريف الحبل) ، هذا يعتبر طريقاً معتبراً يتفرع منه بعد أن يترك (طريف الحبل) عدة طرق،طريق يذهب مشملا ويتفرع

الى طرق ، وطريق يذهب الى (العتك) وطريق يذهب الى (القصب) وما وراءه ومن كلٍّ يتفرع طرق أخرى .

وطريق يذهب مجنباً فيتجه نحو (السحق) ونحو (الثرماني) وما حول ذلك . وطريق يذهب مشرقاً فيمرّ (برغبة) و (الزويضة) وينشعب الى طرق ، طريق يذهب الى وادي (عبيثران) ، وطريق يجتاز وادي (عبيثران) مشرقاً ويعلو الجبل فيذهب منه شعبة الى بلد (البير) وما حوله . وتذهب شعبة الى (حريملاء) وما حولها ، وهذه يقال لها (مغطية) وطريق يمر (بثادق) تاركاً (الغرابة) يساره ، ويفضي الى (العتك) تاركاً (البكرات) يساره أيضاً ، وينشعب منه شعبة يقال لها : طريق (المظل) تذهب مشرقة لتعارض خط (سدير) ، مما يلي (حسي دقلة) .

ومن كل يتفرع طرق كثيرة . وما أراك ذكرت عن هذه الطرق شيئاً . لماذا ؟ ما دمت قد ذهبت لذكر طريق (الفاقعة) و (بنبان) ؟ ألا يكون هذا أهم ، وألزم من ذلك ؟! أو لأن حضرة الأخ قد سلك ذلك مرتين(ووجه تعرفه ولا وجه تنكره) ؟!

ثم يا أخا العرب ، قولك : ان مجلة «العرب» تحدثت عن (ثادق) بما كفاك إعادة الحديث عنه ، أمر فيه نظر فمجلة العرب سئلت عن (ثادق) من الناحية التاريخية ، وأجابت بما حضرها من الناحية التاريخية ، لكن وصف (ثادق) وأين تقع ، ومن هم سكانها ، وما هي أهميتها ، وكم سكانها ، وما هو واديها .. الخ ، هذه الأمور لم تتعرض لها مجلة العرب ، فهلا أمتعت وأبدعت في وصف هذه المدينة ، ما دام شطّ بك المزار ، ونأت بك الدار ، عن خط سيرك لتريح نفسك قليلا ..

ثم قال سعد : أما فيما يخص هضبة الغرابة ، القريبة منها – يعني ثادقاً – والتي ذكر الاستاذ عبد الله انها هضبة حمراء ، فالواقع ان هضبة الغرابة جبل أسود ، له قمة ملساء .. الخ ، واستدل بقول ياقوت عن الحفصى ، انها كذلك .

والواقع يا سعد أن هضبة الغرابة حمراء ، لا سوداء ، وإذا أردنا أن نتجاوز ما نرجحه ، قلنا : انها ذات جدد بيض وحمر ، وفي بعض جددها كمتة . وأنا أتحدث عنها حديث العارف لا حديث السامع ، ولا نريد أن نكون كالظبي يتهم عينيه ، حينما يرى الشبح ، ويذهب يستفتي أنفه ، وما راءٍ كمن سمعَ يا أخا العرب .

وفي عودة الاستاذ سعد من (ثادق) وما حوله بالسلامة ، استأنف السير على الطريق الأم ، مما يلي (الظعينة) ، وفاته ان هناك طريقاً يذهب مما بعد (الحور) بقليل ، جاعلا صفراء (الشمس) يمينه ونفود (قنيفذة) يساره مشملا حتى يأتي (مراة) وتذهب منه طرق تعتسف النفود ، مغربة ، وأخرى (للشمس) و (الشميسة) وما حولها مشرقة . فاته أن يذكر هذا الطريق ، رغم انه يتشبث بالطرق ، وببنيات الطرق ..

وفاته أيضاً حينما واكب جبل (عريض) ان به ثنية يقال لها : (ثنية المتنة) والبعض (ثنية عريض) يختصر أهل السيارات طريق (رغبة) وما حولها وما بعدها مع هذه الثنية ، بدلاً من طريق (طريف الحبل) ، وأخونا سعد وهو طلاع الثنايا ، والمشغوف بذكرها ، لم يذكر هذه الثنية،ويا لفوات الفرصة !!

وعند (طريف الحبل) أفاض الاستاذ سعد في ذكر (الوشم) أو (الوشوم) وأورد أقوال العلماء ، وذكر ان (الحمادة)تدخل في مسمى (الوشم) .. وحسناً فعل ، إلا انه لم يوضح الحدود بين (المحمل) وبين (الوشم) ولا الحدود بين (الغاط) وبين (الوشم) ، ولم يوضح حدود (الوشم) من الشمال ، مما فوق النفود ، ولا حدوده من الغرب مما بعد الصفراء ، ولم يعط القارىء إلمامة موجزة عن (الوشم) ما دام قد استدرك على صاحب المجاز ، انه لم يفعل ذلك ، وما دام قد ذكر طرفاً من تاريخ (الوشم) وخبره ..

وفي حديثه عن الأودية والشعاب التي تنصب من صفراء الوشم مشرقة .. استدرك عليّ انني سميت شعب (ابي الفراوح) (بأبي الفروح) . وأنا لا

أعترف بهذا الاستدراك ، فهو (أبو الفروح) ، وهكذا سمعت أهل المنطقة ينطقونه فحفظته ، و(من حفظ حجة على من لم يحفظ)، وإذا كان هناك من ينطقه غير هذا فذلك لا يمنع من التسمية التي أوردتها ، ومعه لا يكون استدراكك وارداً أيضاً ، فلكل أن ينطق بالوارد كيف شاء .

وذهب الأخ سعد يعدد الأودية والشعاب التي تنحدر بعد أبي الفروح من (صفراء الوشم) مشرقة ، حتى وادي (الرعن) (فمراة) وأخذ على أنني لم أذكر شعب (كافت) الذي يسقي نخيل مراة، ويملأ حفرة الشرب هنالك، كما أخذ عليّ أنني لم أذكر وادي (مانح) الذي يسيل من شمالي (مراة) ويصب مشرقاً في الرحبة الواقعة شماليها وشرقيها .. وأود أن أنبه الأستاذ سعد أنني – غالباً – لا أذكر إلا الأودية الكبار ، وخصوصاً ما له شهرة أو ذكر تاريخي .. فتدبر منذ خرجت من (الرياض) مصطحبا المجاز ، كم مررنا من البلدان والقرى ، لها شعاب تسقيها وكم قطعنا ومررنا من الشعاب غير ذات قيمة ، مسماة وغير مسماة ، ومع ذلك لم نذكرها ، حفاظاً على أهمية البحث ، وتقديراً لشعور القارىء ، وتجنباً لذلك ما ليس من ذكره فائدة ، ولو ذهبنا نتتبع كل قلعة ، وشعب ، ومسيل ، وصنع .. لطال بنا المدى من ناحية ، ولانحدرنا بأهمية بحثنا من ناحية أخرى ..

ثم قال الأستاذ سعد – عفا الله عنه –:وحينما تطرق الأستاذ – يعنيني – لبحث (مراة) من الناحية التاريخيـــة ، ذكر ان (ذا الرمة) قد هجاها واقذع في هجائه ، واطنب في ذلك الهجاء ، وأورد منه أكثر من انموذج ، من عدة قصائد. وأرى انه لا داعي للاطناب في مثل هذا البحث ، وإن كان قد خيب الشاعر (ذا الرمة) في صنيعه .. وأفاض الأخ الجنيدل في هذا الموضوع ..

وأتساءل مع أخي الجنيدل : لماذا يثير هذا الموضوع ؟ ان القضية قضية تاريخ لجيل من الناس بادوا ، ولم تحس منهم من أحد ، ولم تسمع لهم ركزاً ، فما أظن حتى من العشيرة التي هجاها (ذو الرمة) بقي أحد يسكن مراة .

وهذه القبيلة حتى ولو هجاها (ذو الرمة) ماذا يضيرها من شاعر يرضى فيمدح ، ويسخط فيقدح ، هكذا درج الشعراء :

مدحت سعيدا ثم إني هجوته وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

لقد هُجيت المدينة وأنصارها ، ولقد وجه الهجاء إلى سادات العرب ، وإلى كرام الناس وأجوادهم .. فما منع ذلك رواة الأدب ومدوني الشعر من تدوينه وبقائه يتداول في الأسفار ، ويتناقل على السنة الرواة ..

تأخذ عليّ أخي أن حكيت قضية تاريخية . إذاً فأنت تدعو إلى اهمال التاريخ ، وإلى أن نكون في أفكارنا ونتاجنا مدلسين ، مخفين للحقائق التاريخية ، بسبب وبدون سبب .. انني في هذا لا أتهم اخلاص قلمك للحق والعلم ، ولا أتهم سمو نفسك ولكن مثلك إذا وجه النقد على هذا المستوى طمست الحقائق التاريخية ، وصدف الناس عن ذكرها ، ما دام من يشتغل بالنقد يقحم هذه وأمثالها في قضايا النقد ..

لقد قلت بالحرف الواحد : ولن يضير امرأ القيس من تميم ، ولا بلدتهم الطيبة .. أن يجرد عليهم شاعر لأمر تافه ، وهو أنهم لم يدخلوا رحله ، ولم يقروه حينما نزل عليهم ، قد تكون غفلة منهم ، وقد يكون احتقاراً له فيهجوهم . وما احسب انها كذلك ، فهي قرية كريمة ، وأهلها طيبون ..

قلت هذا ، ولكن أخي سامحه الله ضرب عنه صفحاً ، وأثبت ما وددت انه لم يثبته . ورب ملوم لا ذنب له !.

وأخذ عليّ الأستاذ الجنيدل قولي : ان وادي الجمل يسيل من تلقاء مراة ، هو ووادي الرعن ، وقال : انه لا يسيل من تلقاء مراة ، وانما يقطعه الطريق قبيل مروره بثرمداء .

فإذا عرفنا ان وادي الجمل يسيل من الصفراء الواقعة بين مراة وبين ثرمداء ، بميل قليلا إلى الغرب . أدركنا أن التحديد لم يبعد النجعة ، لا سيما والمسافة التي بين ثرمداء ، وبين شمال مراة غربيها ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة من الأكيال ، فالخطب يسير ، والتحديد متقارب ..

واستدرك الاستاذ الجنيدل بعد هذا عليّ اطلاق اسم (المسمى) على وادي أثيثية .

والواقع ان ذلك وقع من سبق قلم ، وجلّ من تنزه عن السهو والغفلة . وقد نبه على ذلك اكثر من واحد،منهم الاستاذ عبدالكريم بن جهيمان، والاستاذ سعود بن بلهيد، وغيرهم ، فبادرت بالكتابة الى صاحب مجلة العرب ، بعد ان التقيت بالأخ ابن بلهيد ، بحكم ان هذه بلده ، وأرضه ، فحددنا معاً مسار هذه الأودية والشعاب ، بما هو ثابت ان شاء الله .

عاد اخي مرة اخرى الى شطحاته فقال : وقبل ان نخرج من دراسة الجزء الثاني عشر ـ السنة الثالثة نعود الى تحقيق المواضع التي مر بنا ذكرها في منطقة (الوشم) ، ولم يبحثها الاستاذ – يعنيني– بحثاً تاريخياً .

فتكلم الاستاذ (الجنيدل) عن (القصب) و(المشاس) و(الحرّيق)و(الصوح) و(الداهنة) و(الفروثي وفريثان) و(الجريفة) و(الضبية) و(العكرشية) تكلم عن هذه ، وكلها في الحمادة ، بينها وبين طريقنا (نفود عريق البلدان)وليست من منهج بحثنا في قبيل ولا دبير ، ولكنه ـ هداه الله ـ يصر على رحلاته الجانبية ، وينأى بسالك الطريق عن طريقه ، وسوف يعتسف به هذه المرة رمالاً متهايلة ، وحاجزاً طبيعياً تقصر الهمم دون افتراعه ، كل ذلك من أجل أن يجد للنقد منفذا يكثر به السواد في البياض ، ويقول ها نحن !! ونعم يا سعد ، لولا انه أدركك ما أدرك سميّك ، ذلك الذي أورد ابله وهو ملتف بشملته ، والابل يحتاج سقيها الى مشمر عن ساعديه ، ذي مِرّة ، ودربة وحصافة .. ولكن سعداً لم يكن كذلك ، فقيل له :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

وليتك حينما فعلت يا سعد لم تترك لقائل مقالا ، من حيث الدقة والاستيعاب ـ ولكنك أردت ان تتزود بشيء دخل عليك النقص منه ، عددت قرى الحمادة واهملت شيئاً ، وعددت رياضها واهملت شيئاً ، ثم أهملت ما لا يهمل من الطرق ، وصدفت عن أعلام جبالها لم تذكرها ؟

لا يخفى على أحد من اهل المنطقة ان هناك قرية تدعى (أسيل) ، تقع ما بين المتينة والداهنة) ، شمال الضبيات شرقيها ، في سفح طويق ، سكانها من السيايرة ، وآل جوفان من العجمان . ولها ذكر في كتب المنازل والديار ، انظر (بلاد العرب) صفحة (٢٦٤) و (٢٣٠) وتعليق الاستاذ حمد الجاسر عليه .. فلماذا لم تذكرها ايها الناقد الفاضل ؟!

وذكرت روضة (العكرشية) ، ولماذا لم تذكر (ام العصافير) ، وهي روضة شهيرة بواقعها ، وبتاريخها، فيها وقعة على رأس القرن الثاني عشر ، بين الإمام عبدالله الفيصل ، وبين محمد بن رشيد ، وقتل بها عقاب بن حميد ولم تذكر روضة (العقيلات) ؟؟ ولم تذكر من جبالها (المتينة) و(الفريدة) و(ابو الهيال) و(القممة) و(البكرات) و(عبيد ام العصافير) و(الشفيعي) ، و(المعيقل) .. وغيرها ..

ولم تذكر وادي (الحريق) و (القصب) ولا وادي (اعيوج) ولا وادي (مشاش المراطيب) ؟ واهملت ذكر ما لا يهمل وهو (العتك) من اكبر فجاج (طويق) والمعبر الأول ما بين (نجد) و (العرمة) و(الدهناء) و(الصمان) والمنطقة الشرقية !

اننا ندرك هذا الذي عددته تماماً وندرك هذا الذي استدركناه عليك..ولكن لنا منهجنا في البحث لم نشأ الخروج عليه . ان خطأك يا صاحبي مزدوج : أولاً : نقدت حيث لا يجب النقد ، وثانياً : وقعت في الخطأ في مادة نقدك والمفروض ان يكون الناقد متمكناً من نقده ، ملماً بجوانب موضوعه ، لانه مقدم على تخطئة غيره ، ممن بذل الجهد والعرق في تحقيق بحثه ، وعيب ان يقال له : أخطأ وهو لم يخطىء ، واكبر منه أن يقع في الخطأ من يقول له ذلك !!

وقال الاستاذ الجنيدل انني قلت : سمي نفود (قنيفذة) بهذا الاسم لأن (قنيفذة) اشهر منهل هنالك ، فأضيف اليه. وقال: انه لا يوجد منهل بهذا الاسم الآن ..

وأقول للأخ ان ياقوتاً في معجمه حينما قال : القنفذة : من مياه بني نمير ، عن ابي زياد . وهنالك نفود اسمه (نفود قنيفذة) في بلاد بني نمير ، تحصل معنا مضاف ، ومضاف اليه ، فالمضاف هو النفود ، وأين المضاف اليه ؟! لا بد ان يكون هذا المنهل ، الذي ذكره ياقوت ، فهذه الاضافة لم تأت عبثاً ، ففي هذا النفود من المسميات على هذا النحو : نفود (الغزيز) ونفود (الخبرا) و(الخبرا) ونفود (قنيفذة) كل جزء منه في جهة يضاف الى المنهل الذي حوله..

وهكذا اتجه رأيي بالنسبة للتسمية . أما أين (قنيفــــذة) الآن ؟ فليس فناؤها أو اندثارها بدعاً من كثير من المناهل التي توجد اسماؤها في المعاجم ولا توجد أعيانها ..

ثم أخذ الاستاذ في تعداد الاودية بعد وادي (اثيفية) فذكر (الأواعر) و(المِسْمى) ثم (القرائن) و (غسلة) و (الوقف) وفصل في ذكرهما بما لم أشأ البسط فيه ببحثي «المجاز» اكثر مما اورده عنهما صاحب الدار الشيخ محمد بن بلهيد ـ رحمه الله ـ في كتابه «صحيح الاخبار» حيث انها بلده، وهو بها أعلم، بصفته مؤرخاً ومهتماً بشؤون الديار ، بعيداً فكيف ببــــلده ؟؟ فوقفت في الوصف حيث وقف.. اما انني قلت : ان وادي (النميري) هو وادي (العنبري) يلتقيان في (القرائن) ويرى الأخ الجنيدل أنهما يلتقيان قبل ان يصلا (القرائن) فالخطب يسير ، والخلاف تعبيري . فعلى فرض ان لقياهما قبل القرائن بخمسة اكيال أليسا بعد ذلك يسميان بوادي (القرائن) ؟ إذن هما يلتقيان في القرائن .

أما قوله : انني عللت اسمها (بالقرائن) بالهضبتين الواقعتين شماليها ، وان هذا تعليل جديد ، وان الصحيح انها سميا بذلك لاقترانها .. فما دمنا نعرف أن التسمية القديمة واقعة على ذات غسل ، وان الوقف حديثة ، فكيف نجمع بين هذا ، وبين قول الأخ الجنيدل ، ان التسمية القديمــــة علتها ان القريتين متجاورتان ؟ ألم يقل فيما بعد : وفي طرفها ـ قارة مقابلة المنصفة ـ من ناحية الشرق قارة منقطعة منها ، ويسميها البعض (القراين) ؟؟

مع المجاز بين اليمامة والحجاز

– ٥ –

(تابع ما نشر في ص ١١٤٣ من السنة الرابعة)

أما الوصف الجغرافي لرجم مُغيرا – أو رجوم مغيرا – فهو خشم صفراء ، مرتفع طبيعي وليس فيه أثر بناء ، يطل على وادي الضحوي من ناحية الجنوب وتمتد صفراؤه بانحراف تدريجي صوب المشرق وتبرز فيه قور صغار منفصلة برؤوس مدورة مستوية السطوح تسمى (الرجوم البارزة) ويطلق على مجموعها رجوم مغيرا ،وعلى الأنف البارز الآنف الذكر رجم مغيرا ، ويلاحظ أنه ذكر في الخرائط الجيولوجية [١] باسم (رجم الضحوي) ولعل ذلك كان

بعد هذا عدد الاستاذ الجنيدل ما بين القرائن ، وشقراء ، وما أقصر ما بينهما!! عدد ما هنالك من مسميات ، كميت ، خشم الكربة ، خشم المنصفة. هذا من اليمين ، اما من اليسار فالقراين – الجبل – .

وعلى أبواب شقراء من الناحية الجنوبية اخذ عليّ الاستاذ الجنيدل عدم ذكر الطريق الذي يتشعب من الطريق الأم ، مشرقاً يقطع عريق (الوشم) الى (الحمادة) ومنه بحذاء (شقراء) شرقيها جنوبيها ، يتفرع طريق (اشيقر) ؟ والواقع انني لم اذكر هذا الطريق نسياناً ، رغم انني وراء فكرة تعبيده ، أيام كنت بوزارة المواصلات ، واعرفه تماما .

وما سمى الانسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وانني احييك على هذه الذكرى وأقول :

يا ملهماً ابداً رشاده اذكرتني درب الحماده
لا زال عيشك ناضراً ومعين علمك في زياده
فلقد أفادوا قبلنا : من جد في شيء أجاده

(للبحث صلة) الرياض – عبدالله بن خميس

(١) إعداد مصلحة المساحة رقم : I - 207 - A

مع المجاز بين اليمامة والحجاز

- ٥ -

(تابع ما نشر في ص ١١٤٣ من السنة الرابعة)

أما الوصف الجغرافي لرجم مُغيرا - أو رجوم مغيرا - فهو خشم صفراء ، مرتفع طبيعي وليس فيـــه أثر بناء ، يطل على وادي الضحوي من ناحية الجنوب وتمتد صفراؤه بانحراف تدريجي صوب المشرق وتبرز فيه قور صغار منفصلة برؤوس مدورة مستوية السطوح تسمى (الرجوم البارزة) ويطلق على مجموعها رجوم مغيرا ،وعلى الأنف البارز الآنف الذكر رجم مغيرا ، ويلاحظ أنه ذكر في الخرائط الجيولوجية [١] باسم (رجم الضحوي) ولعل ذلك كان

بعد هذا عدد الاستاذ الجنيدل ما بين القرائن ، وشقراء ، وما أقصر ما بينهما !! عدد ما هنالك من مسميات ، كميت ، خشم الكربة ، خشم المنصفة. هذا من اليمين ، اما من اليسار فالقراين - الجبل - .

وعلى أبواب شقراء من الناحية الجنوبية اخذ عـليّ الاستاذ الجنيدل عدم ذكر الطريق الذي يتشعب من الطريق الأم ، مشرقاً يقطـــع عريق (الوشم) الى (الحمادة) ومنه بحذاء (شقراء) شرقيها جنوبيها ، يتفرع طريق (اشيقر) ؟ والواقع انني لم اذكر هذا الطريق نسياناً ، رغم انني وراء فكرة تعبيده ، أيام كنت بوزارة المواصلات ، واعرفه تماما .

وما سمى الانسان إلا لنسيه ۝ ولا القلب إلا أنـــه يتقلب

وانني احييك على هذه الذكرى وأقول :

يا ملهماً ابـــداً رشاده ۝ اذكرتني درب الحمـــاده

لا زال عيشـــك ناضراً ۝ ومعين علمـــك في زياده

فلقـــد أفادوا قبلنـــا : ۝ من جد في شيء أجـاده

(للبحث صلة) الرياض - **عبدالله بن خميس**

---

(١) إعداد مصلحة المساحة رقم : I - 207 - A

مبنياً على وقوعه في ضفة وادي الضحوي ، وقد سبق أن ذكرنا أن مجرى الضحوي ينحصر بين خشم صفرا مغيرا (رجم مغيرا) وبين خشم العبسة .

أما مغيرا : فهي كما ذكر الأستاذ قد أصبحت هجرة لمحسن بن بدر الهيضل من أمراء الدعاجين وقد أقاموا فيها مساكن وغرسوا فيها نخيلاً وحفروا آباراً زراعية ، غير أنها لا تُرى ولا تُرى معالمها من طريق الحجاز وذلك لايغالها في ناحية الجنوب الشرقي ولما يحول دونها من الجبال والصحارى ، وتحديد الاستاذ الخميس بذكرها قبل الحفيرة وفيضة المغص رغم أنها أقرب منها إلى الطريق بمسافة طويلة .

حُمَيّان والبعج : أما حميان فمعروف بديهياً أن شعيب القرنة هو نفس شعيب حميان ، فهو يسمي حميان حتى يصل إلى طرف صفراء الدميثي الشمالي حيث يلتقي بوادي الدوادمي ، ثم بعد أن يسير مسافة (٤) أكيال تقريباً صوب الشمال وبعد أن يجوز طريق الحجاز المعبد يلتقي بوادي التسرير ، وفي هذه الناحية يسمى (شعيب القرنة) وبعد أن يواكب منهل خف يتغير اسمه وهكذا .

أما ماء حميان فهو واقع في نفس هذا الوادي مقابل لخشم صفراء الدميثي من الغرب ، وحوله جبيلات سود تنسب إليه ، وعليه خرائب حجر قديمة وهي بقايا هجرة أسسها عليه جماعة من الدعاجين وهجروها ، أما البعج : فهو يقع في أسفل وادي وَاسط ، وفي ناحيته غرباً ماء رغوة وحوله سناف أسود يسمى (أسيمر رغوة) .

قال الأستاذ : وإذا رمينا بأبصارنا بعيداً بعد ان نأخذ فيما يلي (ربوى البعج وحميان) نرى جبل (الجمح) جبل فيه وحوله مناهل ، وهو يقع شمالي (عرض شمام) وفيه ماءة ماسل ، والواقع أن جمح ماسل يقع في ناحية العرض الشمالية الغربية ، وهو جبل أسود مرتفع تتصل سلاسله بجبال العرض ولا يرى من الطريق المعبد إلا في مواقع معينة وتحت طقس خاص ، وذلك حين يصفو الجو أو ترتفع الأعلام في تموجات السراب في الصحراء ، وقدذكر

الخميس من مياه ماسل الحفيرة ، والواقع أن الحفيرة ليست من مياه ماسل ، فهي واقعة في ناحية العرض الشمالية تفصل بينها وبين ماسل جبال وأودية ، وهي واقعة في ناحية وادي جهام ، بعيدة عن وادي ماسل وجهته ، ثم أورد عبارة الهمداني الآتية : (وبطرفه يعني السحامة ماء يقال له (الحفيرة) حفيرة النصرم وذلك حين انصرم جراد ثم تنشأ رملة الحوامض) .

والواقع أن الحفيرة الوارد ذكرها في هـــذه العبارة بعيدة كل البعد عن حفيرة الهيضل من حيث الموقع والتحديد الجغرافي، فأين منصرم جراد ورملة الحوامض من شمال العرض ؟، ثم ذكر الفيضة هجرة عيران بن سلطان الهيضل ويبدو أنه عدها من مياه ماسل تبعاً لهجرة الحفيرة ، والواقع أنها تبعد كثيراً من حيث الجهة والمسافة عن ماسل ثم هي تسمى (فيضة المغص) لأنها تقع في فيضة شعيب عظيم يسمى المغص ، يخرج هذا الوادي من جهة عرض شمام الشمالية من ناحية جبال داحس ، وسمي المغص لأنه يفلق الجبل الى قسمين يخرج من بينهما .

قال الأستاذ الخميس : (ومن الجمح ومناهله وما حوله يكون الطريق قد حاذى وادي واسط) . أرى أن هذه العبارة لا قيمة لها في التحديد ، فما علاقة الجمح ومياهه التي تبعد عن الطريق (٥٠) كيلا تقريباً بوادي واسط الذي يمتد بجانب الطريق جنوباً ليس بينه وبينه إلا مسافة تتراوح بين مكان وآخر (١٠) أكيال إلى ثمانية ، ثم إن هذا الوادي يمتد مع امتداد الطريق من مصبه في وادي حميان غرباً من صفراء الدميثي ويرافقه حتى يتجاوز مدينة الدوادمي . وقبل أن نصل إلى الدوادمي نعود إلى موقفنا من الطريق المعبد في ناحية وادي القرنة الغربية لتبيّن الأعلام التي ترى بالبصر حقيقة من هـــذا الطريق والتي أخطأ الخميس في أسمائها،وهنا نورد قصيدة أو على الاصح قطعة من قصيدة ، لعبدالله الحداري شاعرمن أهل الدوادمي طال تغربه عنها فقال:

من قـعَـدْ بالسّـف يبشر بالندامه   من خبر مثلي صبر عشر سنوات
زين شوف شداد هوويّا مسّامِه   وأم ركـوْه وأم مـاكِرُوالصفاة

والأصيفر من تحت طرق العدامه سعد أبو من شافها قبل الممات
وان غديت البيضتين هي العلامه العلامه بالهضاب النابغـــات

وقال بعض الشعراء :

يا شداد لا سقّاك رايح عشيّه عساه ما يسقيك رايح مطرها
يا ليتني يوم المـــلاقى خويّه يوم إنْ غـَطـَاروُس السبايا كدرها

من دراسة هذه الأبيات لهذين الشاعرين نستطيع أن نعرف الاعلام التي ترى من الطريق فيما بين الدوادمي والقرنة بالبصر بسهولة .

شداد : إذا ارتفع بك الطريق من القرنة غربا والتفت يميناً رأيت جبل حَقيل ، وقد مضى الكلام عليه ، وإذا التفت شمـــالاً رأيت خشم صفراء الدميثي بارزا ، وأمامه جنوباً جبلٌ منقطع منه وهو جبل (شداد) وهو عبارة عن قارة مرتفعة له رأسان بارزان متوازيان يشبهان شعبتي الرحل . ثم يبدو لك فيما بينه وبين صفراء الدميثي قارة أخرى تمتد امتداداً نسبياً مستوية الظهر تسمى (مسامة) وهما (شداد ومسامة) نائيان عن الطريق واقعاً في إمتداد صفراء الدميثي جنوباً. [المسَامة : نَوعٌ من الرحال يستعمله الجمالون].

أم ركوة وأم ماكر والصفاة : وبعد أن تتقدم في الطريق صوب الدوادمي تبدو لك هذه الهضاب ويبرز أمامها هضيب الضال له قمة مرتفعة وكلها تقع شمال الطريق، ومجموعها تسمى هضاب الضال لأنها تقع في ناحيته الشمالية، أما الصفاة فهي تقع على جانب الوادي الشمالي وتطل على ماء الضال، أما أم ركوة فسميت بهذا الاسم لوجود ركوة ماء في ظهرها تمتلىء من الأمطار ، وأم ماكر (بفتح الكاف وأصلها: مَوْكر) سميت بهذا الاسم لوجود وكر تعتاده الطيور وتفرخ فيه.

وإذا نظرت امامك رأيت البيضتين بازتين مرتفعتين بين هضاب جمش الدوادمي الغربية .

وإذا التفت جنوباً رأيت سنافاً أشقر ممتداً من الغرب إلى الشرق واقعاً على ضفاف وادي واسط الجنوبية ، ويبعد عن الطريق حوالي (٨) أكيال وتبدو لك وراءه من بعد رؤوس هضاب مُجَيْرة ، وتظهر أمامك وأنت تواكب الدوادمي من مسافة (٨) أكيال تقريبـــاً هضاب الدوادمي الصغار وهي :

رضيمة هيفاء والحصى المركز وأم رويسين ، وصفية البلاد ، من ناحية الطريق الشمالية ، والهضبة الوسطى وهضيبة الناصر ، من ناحية الطريق الجنوبية ، ومن هذا البعد تجوز وادي (أبو عُشيرة) وهو واد غـــير كبير ، يأتي من الشمال الغربي ويذهب صوب الجنوب الشرقي ويجوز الطريق ويلتقي بوادي الدوادمي جنوباً منه ، ومن هنا تبدو امامك الهضاب الواقعة غرباً عن الدوادمي البيضتان وأم المشاعيب والجِعلان ، وسنأتي على ذكرهـــا وذكر وادي واسط مفصلاً إن شاء الله .

الدَّوادِمي : بفتح الدال المهملة فواو مفتوحـــة بعدها ألف فدال مهملة مكسورة ، بعدها ياء، هذا الاسم الذي تغلب على مدينة الدوادمي واشتهرت بـه ، وهـــو الإسم الذي تعرف بـــه ، وتسمى ايضاً (داورد) و(العويصي) تصغير العاصي ، وتسمى (العاصي) وقـــد اشتهرت في الشعر الشعبي بهذه الأسماء الثلاثة الأخيرة ولا سيما (داورد) والعويصي، وذلك لخفة لفظهاوسهولة انسجامه في الصناعة الشعرية، ولثقل كلمة الدوادمي واستعصائها على الوزن الشعري .

وقد ذكر الاستاذ عبدالله أنها تسمى أيضـاً (داوردان) وان هذا الاسم معروف عند أهلها ، والواقع أن هذا الإسم غير معروف عنـــد سكانها ومن ينتابونها من غير سكانها من الحضر والبدو ، قال الشيخ محمـــد بن بليهد – رحمه الله – وقد ذكرها باسم داورد وذكرها بعض الأعلام القريبة منها :

دنـّيْتِ ظبيان يقطع نازح الدّيرهْ   وإلى زَمَتْ قارةٍ من دونها قارهْ
يقطعثـَناديهْ مع ضَالِه وتـَسْمريره   ضارٍ بها في مسانيـــده ومحداره
ومنجوّ داورد هو يعرف مِصَاديرهْ   والحيْدالاسمَريذِبْ خشومقِصَاره
ومن الصـّفيّهْ نشوفَ الناس والدّيرهْ   وادٍ سقاها َحقوقَ المزنبامْطارهْ

الضال والتسرير قد مضى الكلام عليهما وكذلك الثنادي، أما الحيد الاسمر فهو يقصد به سِمار الجعْلان الواقع بين بلدتي الدوادمي والشعراء . والصـُّفيّة: هضيبة صغيرة تقع شرقاً من بلد الشعراء . والديرة : هي بلدة الشعراء ، فقد

كان ابن بليهد رحمه الله يقضي فيها بعض الاشهر كل سنة. وقال أيضاً في قصيدة طويلة في مدح جلالة الملك فيصل ، من روائع الشعر الشعبي :

يَبِي يِسْنَنْدْ سِيْد كلّ الاعاريبْ لِهْ ثَمّ بيت الله منادي وجذّابْ
لاَ وَاهَنَّي دَاوِردْ وامْ المشاعيبْ إنْ مرها معطي طويلات الارقابْ
جانا الخبر يامِرْذِيَ الفِطّرَ الشِّيْب إن السفر قد تمّ لدْيار الاجْنابْ
قد رتّبه حامي الوَنيَّاتْ تَرْتيبْ أبوكْ فكّاكَ المشاكلْ والانشابْ

أم المشاعيب : هضبة تقع غرباً من الدوادمي على ناحيـة طريق السيارات الجنوبية ، ويمر طريق السيارات القديم من جانبها . وقال عبد الله اللّوح :

تهنّي يا ديار العرض جاك الوابل المدرارْ
سقى داورد والشعرا ومِزْعِلْ والقوَيْعيّهْ

وقال بعض الشعراء ، وكان مقيما في بلدة الشعراء من قصيدة :

أنا نهار السبت دنّيتْ فاطري أسبَق من أم البَيْض للعشّ رايدْ
عرّض على قصرِ العويصي مع الضحى أهل مرحبا للضيف والسّعْر كايدْ
ونَحّرها القرنَهْ حْقَيلِ يسارها حقيل مع أيسرها بليّا بعايدْ

وقال الشاعر جبيري :

يقول جِري حارب النـوم عَيْنِهْ بليل الدّجا والجَدْي باللّج حالقْ
غمر عنى للعشق عشرين ليـله مـع مثلها ما ذاق للنوم ذايقْ
وردنا على العـاصي وهم يفرعونه عِلْوَى ، ومعهم من سُبَيْع لفايقْ
ولقِيتْ على الما طفـلةِ عـامريّهْ من خير من يلبس ثيابِ رقايـقْ

أما من الناحية التاريخية فانه لا يوجد – فيما اطلعت عليه من كتب المعاجم الجغرافية واللغوية – لها ذكر بهذا الاسم – الدوادمي – أو – داورد – أما اسمها العاصي والعويصي بالتصغير ، فيحتمل انها محرفة من كلمة العيصان القديمة التي كانت تطلق على ناحية من بلاد بني نمير فيها معدن .

قال ياقوت [1] : العيصان بكسر أوله تثنية العيص ، من معادن بني نمير ابن كعب، وقيل : العيصان ناحية بينها وبين حجر خمسة أيام من عمل اليامة؛ بها معدن لبني نمير .

وقال الحسن الاصفهاني [2] : والعيصان من حجر على مسيرة خمسة أو ستة أيام ، وهو قرية كبيرة ، فيها معدن لبني نمير . وقال أيضاً [3] : وقد رتب الطريق بين اليمامة وبين العيصان : (ثم تصير الى ثنية الاحيسي ، وهي ماءة عليها نخل ، ثم تجوزها فتقع في ناحية من قرقرى اليامة ، فترد ماءة يقال لها المنفطرة ، وهي لبني عدي بن حنيفة ، ثم تجوز ذلك فترد الغزيز ،فتأخذ على رملة يقال لها الوركة ، فإذا جزعتها وردت أهوى ، وأضيمر . — وجاء في معجم البكري أصيهب — وإن شئت إذا خرجت من أهوى وردت العفافة ، وهي لباهلة ، وكثيراً ما يتخطونها الى عكاش ، ثم تجوز فتعبر رملة يقال لها جراد ، فإذا جزت جراد في مكان من حائل يقال له الهلباء ، فاذا جزت الهلباء وقعت في واد حرج بين صدي جبل لنمير ، ثم تجوز ذلك فترد عكاشاً ماء لبني نمير عليه نخل ، فإذا جزت عكاشاً وردت العيصان ، وهو معدن وبه تجارة ، وهو لبني نمير ، ثم تجوز العيصان فترد معدن الأحسن ، وهو لبني كلاب ، وهو من أول أعمال المدينة) وقد سبق أن بحثنا هذا الوصف الجغرافي عند ذكر المروت وعند ذكر وادي القرنة .

ومن دراسة هذه العبارات ، ومقارنتها بالوصف الجغرافي والآثار التاريخية لمنطقة الدوادمي ، حيث معالم المعادن القديمة وآثار القرى والمساكن المنتشرة في مناطق المعادن شمالاً وجنوبا وغربا من مدينة الدوادمي وعلى مقربة منها ، يمكن القول بأن منطقة الدوادمي هي منطقة العيصان التي ورد ذكرها في كتب المعاجم القديمة .

---

(١) معجم البلدان . ج ٤ ص ١٧٣ .
(٢) بلاد العرب ، ص ٣٨٢ .
(٣) بلاد العرب ، ص ٣٦٢ - ٣٧٠ .

قال الاستاذ عبد الله بن خميس : ولم تشتهر بلدة (الدوادمي) إلا بعد أن جعل منها مركز وممر للسيارات الذاهبة والآيبة من الحجاز الى الرياض

والواقع أن ما ذكره هو أحد أسباب اشتهارها ، ولكن نهضتها العمرانية والتجارية كان لها عوامل أخرى ، فمركزها الإداري والقضائي له أثر كبير في تطورها الاجتماعي ، فقد ارتبط بها من الناحية الإدارية والقضائية عدد كبير من البلدان وهجر البادية مثل : منطقة السرّ ومنطقة الجِمْش وهجر وادي الرّشاء ، وهجر جَهَام ، ومنطقة النيّر وهجر الدعاجين ، عُريدة والحفيّرة والوطاة وماسل وفيضة المغص ومغيرا ، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي المتوسط بين الحجاز والرياض ، وكذلك قربها من منطقة القصيم وتعبيد الطرق بينها وبين هذه المدن يسّر لها الاتصال المنظّم والتبادل التجاري فيما بينها وبين المدن من ناحية وفيما بينها وبين القرى وهجر البادية من ناحية أخرى ، وهناك مرافق أخرى ذات أثر كبير في دعم نشاطها التجاري والعمراني ونموها السكاني ، فقد أصبحت تضم الى جانب مركز الامارة عدداً من الدوائر الرسمية . أما من الناحية التعليمية : ففيها مكتب تعليم يشرف على شؤون المدارس في نفس المدينة وفي البلدان المجاورة لها ، وفيها ثلاث مدارس ابتدائية ومدرسة متوسطة ومدرسة ثانوية للبنين ، وفيها مكتب مندوبية لمدارس البنات وترتبط به مدارس البنات في القرى المجاورة وفيها مدرسة ابتدائية للبنات . وفي السنوات الأخيرة أخذت النهضة العمرانية تسير بخطوات واسعة على إثر النمو السكاني الذي أصبح ملحوظاً ، ويَفِدُ اليها السكان من القرى المجاورة لها ومن البدو الذين يمتهنون التجارة وأصبحوا بحكم عملهم مرتبطين بالبيئة الحضارية والاستقرار ، إضافة إلى أن هناك قسماً منهم يعملون موظفين في المرافق الحكومية ، في الدوادمي .

وعند ذكر الدوادمي أورد الأستاذ بحثاً عن (مناخ عرجا) الواقع بين قبائل عتيبة من ناحية وقبائل مطير وحرب وقحطان من ناحية ، والواقع أن

الاستاذ نقل ما كتبه الشيخ محمد بن بليهد[1] عن هذا المناخ مع تلطيف يسير في بعض العبارات، مع ملاحظة أن ابن بليهد ـ رحمه الله ـ اختصر بحث هذا المناخ ولم يذكر دور قبيلة قحطان فيه ، ولو ذهبنا في تصحيح أخبار هـذا المناخ واستقصائها لما اتسع له هذا البحث وسنتركه حتى تتاح مناسبة أخرى إن شاء الله .

قال الاستاذ : (وعرجة المذكورة هنا هجرة الآن للمحاميد من طلحة من الروقة ، وأميرهم قطيم بن سعود الحبيل ، وتقع عرجة شمالي الدوادمي قريبة منه ، وبينها وبينه قف يتصل بالشريف يقال له الخلّة ، ولعله الذي ذكره ياقوت باسم الحلّة بالحاء) ثم أورد عبارة ياقوت ، وعبارة للهجري كلتاهمـا على ذكر الحله بالحاء المهملة) .

عرجا (عرجة) : والواقع أن عرجا كانت مورداً قديماً من موارد البادية، ولها ذكر في كتب المعاجم القديمة بلفظ (عرجة) غير أنه في هذا العهد قد أصبح من النادر نطقها بالهاء في آخر الاسم؛ بل أبدلوا منها ألفاً فأصبح الاسم الشائع لها هو عرجا . قال سليمان الناصر بن شريم :

يا راكبين أكوار هجنٍ حرايرْ   مثل القطا اللّى عقب ورده صديرِ
طوعات كنّ رقـابهن المرايرْ   مثـل الغصون إذ انتحت بالمسيرِ
بِتْرَ الفخوذ مرفضات الحصـايرْ   وعيونهن مثل الخلاص الخَميرِ
تِشْبه مَهىً ذاره من الريح ذايرْ   صكّه وهبّت وارتهش مستديرِ
جفل وعـاد وشاف راس المعايرْ   واقفن كما السّبْحه بخيْط الحريرِ
يوم استوى للبرق مثـل الذخايرْ   واصبح لمزنـه عقب سيله صِبيِرْ
يَرْعَنْ زَهَرْ ما لاق عشبَ القرايرْ   ما كفته عَرْجا لوادي الجـريـر

وقال حمد بن إبرهيم بن عمار[2] :

يا راكب اللي قيّظتْ عقب مخضارْ   بين الخَنَقْ وبين عرجا إلى النّيْرْ
مجهود من نوّ الثريا بالامطـارْ   والصيف غرّقهـا على فقسة الطيرْ

(١) صحيح الأخبار الجزء الثاني ص ١١٤ و ١١٨ ولم يشر الى مصدره .
(٢) شعراء الرس ، ص ٨٣ .

وتبعد عرجا عن الدوادمي (٢٧) كيلا شمالاً ، وقد أسست فيها هجرة لقبيلة الحماميد من الروقة في أول عهد الملك عبد العزيز ،وهي من أكبر هجر القبائل ، وقد ذكر أمين الريحاني أن عـــدد الذين يشتركون في الجهاد من أهلها يبلغ ألفي مقاتل[1]، وذلك في أول عهد الملك عبد العزيز – رحمه الله – وقد أصبحت هذه الهجرة بلدة زراعية في هذا العهد ، وألف أهلها حيـــاة التحضر والاستقرار ، ويوجد فيها حالياً محكمة شرعية ، ومدرسة ابتدائية للبنين ومدرسة ابتدائية للبنات ، ومستوصف ومكتب بريدي .

قال ياقوت[2] : العرجة بكسر الراء من ميـــاه بني نمير . وذكرها الهجري بهذا الاسم (عرجة)[3] .

قال الاستاذ في عبارته السابقة : بينها وبينـــه – أي الدوادمي – قف يتصل بالشريف يقال له (الخلـّة) ولعله الذي ذكره ياقوت باسم الحلـّة بالحاء . والواقع ان الخلـّة بضم الخاء المعجمة فلام مشددة مفتوحة – كما ينطقها عامة أهل نجد – والتي تقع بين الدوادمي وعرجاء ليست قفاً كما ذكر ولكنها هضبة سوداء ملتفة حول نفسها مذروبة ، واقعـة في صحراء مستوية فسيحة بَرْث أبيض منعزلة في وسطها بعيدة عن الجبال والقفاف ، تقع جنوبـاً عن عرجا بميل يسير صوب الغرب وشمالاً من الدوادمي ، ويمر من جانبها طريق السيارات بين نفي والدوادمي ، ولهـذا ذكر بهـذا الاسم في الشعر الشعبي . قال تركي بن مُحَـيّـا :

إن كان شَجْمَى ما رمت عبد اللهْ والا مَعَ السايرْ تروحْ
ارمي عشيرك يا ظُبَيَّ الخلـّـــهْ لو كان حمّايَ اللدّوحْ

أما القف الذي ورد ذكره في كتب المعاجم والذي ذكروا انـــه يتصل بالشريف فإنه لا يقع جنوباً من عرجا فيما بينها وبين الدوادمي، ولكنه واقع شرقاً من عرجا فيما بينها وبين السرّ . وقد أورد الاستاذ الخميس عبارة الهجري وهي كالآتي : وآخره النشـّاش و (عرجة) وهي مـاءة ، وتتصل بعرجة (الحلة) ويخرج منها الى (السرّ) ثم من السر إلى (جراد) وهي رملة .

---

(١) نجد الحديث وملحقاته ص ٤٥٤ .

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص٩٩ . (٣) أبحاث الهجري ص ٢٣٤ .

فهذه العبارة واضحة ، ويتبين منها أن قف الحلة واقع بين عرجا والسر ، كما هو الواقع الطبيعي لجغرافيـــة هذه الناحية ، ولكن الذي أوهم الخميس هو قرب لفظ الحلة بالحاء المهملة من لفظ الخلة بالخاء المعجمة ، وربما أنه لم يشاهد الوصف الطبيعي لهذه الأمكنة ببصره ، وقد استوفينا بحث الحلة بالحاء المهملة عند ذكر حَقِيل والشّنادي .

أما الخلة بالخاء المعجمة فلم أرَ لها ذكراً بهذا الاسم في كتب المعاجم التي اطلعت عليها ، وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من وصفها الجغرافي ، وقـــد ذكرنا الوصف الجغرافي لصحرائها ، ثم هي من أطيب البلاد للرعي وأنقاها أرضا .

قال في « التاج » : والخلة من العرفج منبتـــه ومجتمعه ، وأيضاً ما فيه حلاوة من النبت ، وقيل المرعى كله حمض وخلـّة ، فالحمض ما فيه ملوحة والخلة ما سواه . وتقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض لحمها أو خبيصها وفي التهذيب فاكهتها . انتهى . وكل هذه الميزات الآنفة الذكر متوفرة في مراعي صحراء الخلة وما حولها .

وقد يكون اسمها مشتقاً من التخليل في تعبير عامة أهـــل نجد ، فهم يقولون للأجسام التي تبـــدو نحيفة في تموجات الصحراء الفسيحة (مخللة) ويقصدون بذلك وصفها بالنحافة ، والواقع أنه كلما اتسع الفراغ أصبح الجسم المنفرد فيه نحيفاً ، غير أن هذه الأجسام ترتفع عن حجمها ومستواها الطبيعي تحت ظروف معينة ، وذلك حين تطفو على تموّجـات السراب تحت سماء صافية ، فعندئذ ترى من مسافة بعيدة وفي غير حجمها الطبيعي . قال بعض الشعراء :

بأرضٍ ترى فرخ الحبارى كأنه   بها راكب موفٍ على ظهر قرْدَدِ

وقال كعب بن زهير :

كأن أوب ذراعيهـــا إذا عرقت   وقد تلفع بالقـُور العساقيـــلُ
يوماً يظلُّ به الحرباء مصطخداً   كأن ضاحيَهُ بالشمس مملولُ

وقال فيحان الرقّاص :

ولتهنْ صلاة العصر بغثاهْ منشاعْ   منشاع مرميات خطو المغازيـــلْ
والدرب من بين العرايسْ ليــاقاعْ   وعصيّر يمّ الخنفسيّةْ مخاليلْ

وهكذا هضبة الخلة بالخاء المعجمة ، فهي هضبة صغيرة ملتفة حول نفسها فريدة في وسط صحراء واسعة تحف بها من كل جهاتها ، تبدو للناظر من بعد مخلة فوق تيار السراب المتموّج .

نعود الى الحديث عن جغرافية الدوادمي : تقع مدينة الدوادمي في سهل مستوٍ يحف به من الشرق صحراء فسيحة لينة التربـة تسمى (الرّبوي) ، ويحف به من الشمال والغرب والجنوب نتوءات صخرية تتكون جيولوجياً من النوع الغرانيتي الرمادي اللون ، وفي هذه المناطق الصخرية توجد المعـــادن القديمة ، ويجري البحث والتنقيب وفحص العينات عن مناجمهـا الآن . وفي جانب البلد الجنوبي يمر وادي الدوادمي ، يسيل من ناحية الغرب ويدفـع صوب الشرق ، تاركاً البلدة على يساره حتى يتجاوز معالمها ثم يميـل شمـالاً وينحدر شرقاً محاذياً للطريق المعبّد من الجنوب .

منطقة السّدْريّة : تقع شمالاً من الدوادمي على بعد (٣) أكيال ، وهي منطقة صخرية تشكلها سلاسل جبلية (سنْفان) رمادية اللون ، تمتد موازياً بعضها بعضاً من الشرق صوب الغرب ويتخللها شعاب ضيقـة عميقة ، وفيها توجد حفر المعادن القديمة الواسعة ، وغالباً ما تكون المناجم في ظهور الجبال تفلقها بشكل طولي ، وينزل بعضها الى عمق بعيد ، وفي هذه المنطقة تبدو جذور حيطان المساكن القديمة مبنية من الحجارة ، وهي على شكـل قرى صغيرة وغرف ضيقة منتشرة حوالي حفر المناجم ،وتنتشر حولها بقايا الرحيْ والمساحق الحجرية وحطام الأواني الفخارية المطلية بطلاء أخضر ناعم وكذلك بقايا الأواني الزجاجية المحطمة .

أما تسمية هذه المنطقة (السدرية) فيعللها سكان مدينة الدوادمي بوجود أشجار السدر في أسافل الأودية التي تنحدر منها شمالاً ،وما يقال عن الوصف التاريخي والجغرافي لمنطقة السدرية ينطبق أيضاً على منطقة (سمرة) الواقعة جنوباً من الدوادمي ، وسنأتي على ذكرها .

مُصِدّة : هجرة لقبيلة الرُّوسان من بَرْقا من عُتَيبة ، أسسها خالد بن

جامع وجماعته عام ١٣٤٦ هـ ، على آبار جاهلية كشفت عـــام ١٣٣٧ هـ ، وأميرها الآن حدجان بن مِتْرِك بن جامع ، وتقع شمالاً من الدوادمي مسافة (١١) كيلا ، واسمها حديث ليس له ذكر في كتب المعاجم القديمة .

قال الشاعر الشعبي هويشل بن عبد الله :

هاضني ذيب عوى في مَنْصِدَه جاوِبَنْــه ذياب الثنـــادي
ماقَفِ يا ذيب ما عنه صَدّه فيه نَطْلَ الرّوس مثل الهـوادي

السمنات : قال الخميس : وفوقها غربيهـا — أي فوق مصـدة — هضاب السمنى ، هضاب حمر متجاورات ، والواقع أن هضـاب السمنات تقع غربـاً شمالياً من مصدة ، وهي ست هضبات كبار قريب بعضها من بعض ولكل واحدة منها اسم تعرف به عند سكان هذه الناحية ، وأولهـــا من ناحية الجنوب هضبة (أم دحل) وآخرها من ناحيــة الشمال هضبة (الزويكي) هضبة حمراء نائية من مصدة صوب الشمال الغربي ، ويذكرهـــا البعض بلفظ المفرد فيقـــولون (هضاب السمنا) والبعض يقولون (السمنات) جمع سمنا [١] .

بَرْقا : آبار وقصور زراعية قديمة ، تقع شمالاً غربيا من الدوادمي مسافة (٨) أكيال . والبعض يسمونها (حشّاشة) نسبة الى أهلها أسرة آل حشاش من أهل الدوادمي .

أما تسميتها بَرْقا ، فذلك لوجود برقة تحف بها من ناحية الشمال الغربي على جانب هضبة حمراء غير مرتفعة .

الخُوَيْبات : واحدتها خويبة ، تصغير خابية ، ثلاث هضبات حمر واقعة بين هضاب السمنات وهضاب البيضتين ، ولم يرد لها ذكر فيما رأيته من كتب المعاجم القديمة .

(للحديث صلة) الدوادمي سَعد بن عبد الله بن جُنَيدل

---

(١) وقد ذكرها الهمداني « صفة جزيرة العرب » ص ١٤٧ باسم هضب السمنات .

الربان أحمد بن ماجد

دفاع وتقييم (١)

(انظر مجلة « العرب » ص ٢ ٤ السنة الثالثة ومن ص ٨٣٢ الى ص ٨٥١ السنة الرابعة) .

(١) الصراع على خيرات الشرق

الطرق التجارية :

كانت السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط ، الملتقى الرئيسي للطرق التجارية ما بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور ، حين كانت المنتجات الشرقية من الحرير والعطور والتوابل والأحجار الكريمة وما أشبه ذلك تجد في أسواقها ، خاتمة المطاف لرحلتها الطويلة من مصادرها الأولى في الهند والشرق الأقصى، لتبدأ بعد ذلك رحلة جديدة إلى أسواق الاستهلاك في أوروبا . ولذلك فقد كان التناحر بين القوى العالمية ، شديداً متواصلا من أجل السيادة على هذه المنطقة الهامة من العالم ، نظراً لما تدرّه تجارتها من أرباح خيالية ، وما تضفيه من القوة والمنعة على من يسيطر عليها. استمر هذا التناحر متواصلا من أقدم الأزمان ، حتى ورثته دولتا الفرس والروم ، ثم كانت الغلبة فيه للدولة البيزنطية ، وريثة الدولة الرومانية ، فاستقرّت لها السيادة على تلك المنطقة قبيل الإسلام ، ثم انتقلت إلى العرب بعد ظهوره ، واكتفت بيزنطة باحتكار المتاجر الشرقية وتصريفها في الممالك التابعة لها في أوروبا ، في حرص شديد ، وأنانية بالغة ؛ فكانت السلع الشرقية التي تصل إلى القسطنطينية ،تنقل الى أوروبا في سفن البيزنطيين ومن والاهم من الاوروبيين

---

(١) اعرف ان كلمة تقييم ، وهي مشتقة من القيمة ، غير قاموسية ، وان الكلمة الفصيحة هي تقويم ، ولكن تقويم تعني كذلك معالجة المعوجّ حتى يستقيم . وأنا لا أقوّم اعوجاجاً ،وإنما أحاول إعطاء أحمد بن ماجد قيمته الحقيقية .ولهذا لجأت الى كلمة تقييم علىعلاتها، هرباً من اللبس الذي قد ينشأ من استعمال الكلمة الأخرى.

وحدهم . فلما برزت المدن الإيطالية إلى الوجود ، أخذت تحلّ محلّ بيزنطة في نقل المتاجر الشرقية من موانيء البحر الأبيض المتوسط العربيـــة ، ومن القسطنطينية ، وتوزيعها في الأسواق الاوروبية .

وكانت التجارة الشرقية تتدفق منذ القـــدم ، إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط الشرقية خلال ثلاثة شرايين رئيسية : أحدها برّي ، وهو طريق الحرير ، ويمتد من الصين ، مخترقاً آسيا الوسطى إلى طرابزون ، أو يلتف حول سواحل البحر الأسود الشمالية ، إلى القرم ، ثم يواصل سيره إلى القسطنطينية . وكانت أمم آسيا الوسطى ، كالصين والمغول والخزر والـتركستان والفرس ، تتولى نقل المنتجات الصينية عبر هـذا الطريق الى القسطنطينية .

وثاني هذه الشرايين برمائي ، ويمتد من الموانيء الهندية إلى الميناء الرئيسية في الخليج العربي ، ومنها إلى البصرة ، ثم يواصل طريقه إلى سورية الشمالية براً ماراً ببغداد .

وأمّـا ثالثها : فبحري في معظمه . وهو ينطلق كالشريان الثـاني ، من الموانيء الهندية . ولكنه يخالفه في الإتجاه ، فيسير مباشرة إلى عدن ، ومنها إلى جدة ، ثم يعبر البحر إلى السويس فالقاهرة ، أو الإسكنـدرية براً . أو يقصد إلى مصر من جدة بطريق البر . وقد يتجه من عدن إلى السويس رأساً ، ومنها إلى القاهرة أو الإسكندرية .

العرب يجنون خيرات التجارة الشرقية :

وكانت هذه التجارة في أيدي المسلمين ، وأغلبهم من عرب الخليج واليمن ، نظراً لنشاطهم التجاري ، وموقع بلادهم الجغرافي . ولكنها لم تكن حكراً عليهم وحدهم ، لأن العرب لم يعرفوا الاحتكار في التجارة طيلة تاريخهم . لقد كان يشاركهم فيها ، ولو بنسب صغيرة ، أعداد من الهنـود والفرس واليهود وغيرهم من الشعوب والملل . بيد أن الإشراف على المسالك البحرية ، كان لعرب الخليج واليمن وحدهم تقريباً ، لا لأنهم فرضوا احتكارهم لهذا الإشراف بقوّة السلاح ، وإنما أهّلهم للقيام بهـذه المهمة الخطيرة ، موقع بلادهم الجغرافي

وتكوينهم البيئي ، وتقاليدهم المتوارثة ، وتخصصهم العملي ؛ فكانت سفنهم منذ أقدم الأزمان ، تتولى نقل المتاجر من الشرق الأقصى ، إلى الموانيء الهندية ، ومنها إلى الاسواق العربية في الخليج وعدن وجدة والسويس ،حيث تقوم القوافل العربية ، برية أو بحرية ، بنقلها من هذه الموانيء ، إلى موانيء البحر الابيض المتوسط العربية .

وكان هؤلاء العرب على وعي تام بخطورة المهمة التي اضطلعوا بها، فأولوها ما تستحق من جهد وعناء ، حتى ان بعضهم، ربما غاب عامة عمره في البحر . ولقد بلغني أن رجلاً من سيراف ، ألف البحر ، حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة ... وكان يتحول من سفينة الى أخرى ، إذا انكسرت وتشعثت فاحتيج الى إصلاحها [١] » . ولذلك فقد أصابوا من هذه التجارة خيراً وفيراً ، وأرباحاً طائلة ، قد تبدو خيالية لضخامتها . « انّ أحدهم ليبلغ ملكه أربعين ألف ألف دينار(٤٠٠٠٠٠٠٠) في عصرنا [٢]» . « ... وأخبر بعض الثقات أنه حضر البصرة سنة ٣٢٤ هـ ، فوردت كتب التجار من عمان ، انه وقع بها حريق ... فاحترقت لرجل يعرف بابن مروان ، من العبيد السود ، سوى البيض ، إثنا عشر ألف نسمة ، واحترق له من الأمتعة ما لم يحدّ ، إلا الكافور ، فإنه احترق له أربع مائة بركة ، والبركة خمسون وقراً [٣] » .

« وكانت النظم المصرية (في أيام المماليك) ، تقضي أن يكون ثلث الواردات الشرقية من الفلفل ،وأن يباع هذا الفلفل في جدة على الحاكم المصري بسعره السائد آنذاك في كاليكوت . فلو جلب أحدهم بضائع من كاليكوت، ثمنها ٣٠٠ جنيه ، ليس بينها المقدار اللازم من الفلفل ، فإنّ عليه أن يشتري فلفلا من السوق في جدة بمائة جنيه ، بالسعر السائد فيها آنذاك ، ويبيعه للسلطان بسعره في كليكوت . وفضلاً عن ذلك ، فإن عليه أن يدفع ١٠ ٪

---

(١) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٩ - ١٣٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ ؛ الاصطخري : الأقاليم ص ٦٦ .
(٣) الأقاليم ص ٦٦ .

من الثمن على ما بقي من بضاعتـه ، و ٤ ٪ على ما يبقى منهـا بعد تنزيل الـ ١٠ ٪ السابقة ، ثم انه لا يتسلم ثمن هـذا الفلفل نقـداً ، وإنما عليه أن يشتري به نحاساً من السلطان في جدة ، بسعره في كليكوت ... وبهذا تبلغ حصة السلطـان عادة ، ما يعادل ثلث البضاعـة كلها ، دون أن يتعرض لأية خسارة على الإطلاق (١) » .

« أمـا البضائع الواردة إلى السويس من طريق جدة ، لتصديرهـا إلى أوروبا ، فعلى المورّد أن يدفع عليها في السويس ٥ ٪ من قيمتها نقـداً ، ثم ينقلها على ظهور الإبل الى القـاهرة ... وتسجل البضائـع على بعد ميل من القاهرة . ويبلغ سعر الرطل من الفلفل في أسواق القاهرة ٢٠ بنساً تقريباً . وعلى التاجر أن يشتري فلفلاً بما يعادل ثلث مشترواته . وتنقل البضائع من القاهرة في النيل على ظهور السفن ، ومن النيل إلى الإسكنـدرية على ظهـور الإبل ، وتسجل مرة أخرى في الإسكندرية . وعلى البائع والمشتري أن يدفع كل منهما ٥ ٪ من ثمنها ، وعلى صاحب السفينة ، أن يدفع ٥ ٪ للتصديق على إبحارها (٢) » .

ويصوّر لنا ضخامة هذه التجارة ، ما شاهده ابن جبير من قوافلها في الطريق من اليمن إلى عيذاب ، كما يصور لنا ما كان يحف بتلك الطريق من الأمان الشامل :

« ورمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة ، فمـا تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة بسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمـال الفلفل ، فلقـد خيل الينا لكثرته ، أنه يوازي التراب قيمة . ومن عجب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقي بقاعة الطريق ، أحمـال الفلفل والقرفة وسائرهـا من السلع ، مطروحة لا حارس لها ، وتترك بهذه السبيل ، اما لإعياء الإبل الحاملة لها ،

---

(١) Sir E. Denison Ross, in the Cambridge History of India , p: 1, quoting Whiteway , Rise of protuguese In India , pp: 7 - 8 .

(٢) Ibid. p : 2

أو غير ذلك من الاعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها ، مصونة من الآفات ، مع كثرة المار عليها من أطوار الناس [1] » .

ونظراً لضخامة الأرباح التي تدرها هذه التجارة على القائمين بها ، فان الصراع في سبيل السيادة على مناطق الانتاج في الشرق ، والمسالك البحرية ، والطرق البرية ، التي توصل ما بين مواطن الانتاج وبين أسواق الاستهلاك في الغرب ، وظل متواصل الحلقات منذ أقدم الأزمان . ولعل غزو الإسكندر المقدوني للبلاد الشرقية ، ومحاولته استكشاف المسالك البحرية فيما بين الخليج العربي والسويس ، ليس المحاولة الأولى في التاريخ ، للسيطرة على الشرق ونهب خيراته . وجاء بعد الاسكندر الرومان ، وأنفذ أباطرتهم أكثر من حملة بحرية لإخضاع جنوب الجزيرة العربية والاستيلاء على عدن ، لانتزاع تجارة الشرق من أيدي العرب. ولكنهم أخفقوا في تحقيق شيء من هذه الأهداف، على الرغم من خسائرهم الجسيمة . ومع ذلك فقد وفقوا بعض الوقت في مد خط بحري تجاري خاص بهم ، ما بين الموانيء الهندية وعدن والسويس . غير ان الانباط استطاعوا توجيه شطر غير يسير من تجارة الشرق ، للمرور عبر بلادهم ، عن طريق الخليج العربي والفرات والأراضي السورية ، فأفادوا من ذلك خيراً وفيراً على حساب ما كانت روما تجنيه من تلك التجارة ، الأمر الذي دفع بها إلى شن الحرب عليهم ، فزالت دولتهم من الوجود ، ثم جاء الصليبيون للسيطرة على « أقاليم آسيا بجملتها ، مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء [2] » ، وتلاهم البرتغاليون ، فالهولنديون والإنجليز والإفرنسيون . وأخيراً جاء الأميركيون بإرهابهم النزق الأرعن ، ممثلين في الصهيونية المسعورة . وكلهم يهدف إلى تحقيق الغاية ذاتها .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٣ — ٤ .

(٢) تاريخ الحروب الصليبية المقدسة في المشرق ، المدعوة حرب الصليب ، المؤلف بموجب تاريخ الأزمنة المعاصرة ، من العلامة مكسيموس مونروند . قد استخرجه من أصله الفرنساوي لى اللغة العربية ، قدس السيد كيروكيرو مكسيموس مظلوم، البطريرك الأنطاكي والاسكندري والأورشليمي وسائر المشرق الروم الملكي الكاثوليكي الكلي الشرف والطوبى سنة ١٨٤١ م مطبعة دير الرهبان الفرنسسكانيين بأورشليم سنة ١٨٦٥ م .

المدن الايطالية :

بعد أن انتقلت تجارة الشرق في البحر الأبيض المتوسط ، الى المدن الإيطالية ، اشتد إقبال الغربيين على البضائع الشرقية ، ولا سيا على التوابل والبهارات ، بصورة لم يسبق لها مثيل ، حتى أصبح لها من الأهمية ما للبترول في أيامنا . وإذا كنا نـــدرك أسباب الأهمية التي أصبحت للبترول في هذا العصر ، فقد لا يدرك أكثرنا أسباب الأهمية التي كانت للتوابل والبهارات في ذلك الزمان ، حتى أصبح السعي للسيطرة على تجارتها محـور الصراع العالمي آنذاك ، كما أصبح السعي للسيطرة على منابع البترول محور الصراع العالمي في هذا الزمان . ومردّ تلك الأهمية التي كانت للتوابل والبهارات ، يعود الى ان توفير العلف في الخريف والشتاء كان من أصعب الأمور في أوروبا ، فكان الاوروبيون يضطرون إلى ذبح ما لديهم من حيوانات اللحوم عند دخول الخريف للاحتفاظ بلحومها إلى حين يشتد البرد وتشح الاعلاف . ولما كانت الثلاجـات لم تخترع بعد ، فقد كانت اللحوم تملّح وتتبّل ، لتبقى صالحـة للأكل ، أطول فترة ممكنة . كما كانت التوابل والبهارات ضرورية لتلطيف مذاق تلك اللحوم حين أكلها (١) .

ونظراً لضخامة الأرباح التي كانت المدن الإيطالية تجنيها من تلك التجارة ، وخاصة بعد الحروب الصليبية وما نتج عنها من تطور في الطباع والأذواق في الغرب ، فقد احتدم الصراع فيما بين تلك المدن على الاستئثار بتلك الأرباح ، فانغمست في حروب طاحنة متواصلة . وهذه المدن الإيطالية ، وأهمها جنوا والبندقية ، لم تكن مدناً عادية بالمعنى المألوف ، وإنما كانت دولاً كبيرة ، لها جيوشها البرية ، وأساطيلها البحرية ، ومستعمراتهـــا الواسعة ، وسيطرتها الاقتصادية الجبارة . وأغلبها كان قد بدأ حياته ، بامتهان القرصنة على نطاق واسع . وكان بين تلك المدن من العداوات والأحقاد ، مـا تحتم قيـامه النظم الاحتكارية التي تطبقها في أملاكها .

(١) John Marlowe , The Persian Gulf in the Twentieth century , p: 3 - Michael Edwardes , Asia in the European Age 1498 - 1955 , pp : 21-2 .

النزاع بين البندقية وجنوا :

اتبعت البندقية في علاقاتها الخارجية ، سياسة ميكيافيلية مرنـة . فعلى الرغم من الدور العظيم الذي قامت به في الحروب الصليبية ضد المسلمين ، فقد سارعت بعد فشل الصليبيين ، الى عقد اتفاق تجاري مع القاهرة ، مكن لها أن تحتكر تصريف المتاجر الواردة من الشرق عن طريق البحر الاحمر ، والخليج العربي ، في الاسواق الاوروبية ؛ ثم استحصلت على مرسوم بابوي ، يجيز لها الاتجار مع الكفار (المسلمين !) ، وهو ما كان البابوات قـد حرموه على جميع الأمم المسيحية ، فأضافت بذلك إلى أسباب النزاع التي كانت قائمة بينها وبين جنوا ، نتيجة لاختلاف أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية ، أسباباً أخرى ، أثارت حنق الجنويين وحفيظتهم ، وحملتهم على استخـدام القوة لتحطيمها . فنشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك البحرية ، كانت الفاصلة فيهـا معركة شيوجيا Chioggia (سنة ١٣٨٠ م) التي أسفرت عن تـدمير الأسطول الجنوي تدميراً تاماً .

على أن النزاع الطويل بين البنادقة والجنويين ، لم يكن مردّه التنافس على احتكار تجارة الشرق فحسب ، وإنمـا كان أيضاً نتيجة لاختلاف النظم الاقتصادية والاجتماعية بينهما .

كانت تجارة البندقية تجري على نمط هو نوع من التأميم . فالحكومة هي التي تتولى توجيه التجارة لصالح الدولة العام ، لا لصالـح الافراد ، وتسخّر جهازها الحكومي كله لخدمة تجارتها . وكان توجيـه السياسة التجارية ، وتعيين الموظفين ، وشنّ الحروب ، وسنّ الأنظمة التجـارية ، من اختصاص الدولة وحدها .

أمّا جنوا ، فكانت على النقيض من ذلك كله . لقد كانت بيوتها الكبيرة المتنازعة ، وأحزابها المتطاحنة ، تتنازع الحكم وتستغله لخدمة مصالحها الذاتية الخاصة ، فإذا استولى أحد الأحزاب على مقاليد الحكم فيها ، أقصى منافسيه عن الجهاز الحكومي ، واستأثر وحده بتوجيه شؤون البلاد واستغلال خيراتها .

وقد هيأت هذه الروح الفردية ، لبيوت جنوا الكبيرة ، أن يصبح أفرادها مستشاري القصور الملكية وخبراءها في أوروبا، وأن يبدأوا أول فصل في قصة الكشوف البحرية ، ولا سيا تلك الكشوف التي حسبوها تساعدهم على تحطيم البندقية واحتكارها لتجارة الشرق في الاسواق الاوروبية، ليستأثروا به وحدهم. وإذا كانوا قد انتهوا كقوة مقاتلة ، بعد هزيمتهم في شيوجيا ، فإنهم ما زالوا يدخرون كثيراً من القدرة على توجيه الضربات القاتلة إلى أعدائهم خارج ميادين القتال . لقد أكسبتهم صلتهم الطويلة بالشرق، معرفة واسعة بأحواله وشؤونه، وقد قرأوا — ولا بد — رحلات ماركو بولو ، فقد أملاها وهو أسير في سجونهم ؛ وقرأوا — ولا شك — رحلات اولئك الذين طافوا بالشرق وخبروا أوضاعه على علاتها ، من المغامرين والجواسيس ؛ كما استمعوا — ولا ريب — إلى الاسرى من العرب (وبينهم — على الارجح — أعداد من أهل الخليج واليمن) ، الذين وقعوا في أيديهم أثناء الحروب الصليبية ، أو خلال اشتباكاتهم البحرية مع الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط، فأفادوا من كل ذلك . وأغلب الظن انهم كانوا على علم بأن عبور المحيط الهندي من السواحل الافريقية الشرقية إلى الهند ، كان من الامور المألوفة بالنسبة للسفن العربية . وأغلب الظن كذلك ، انهم كانوا على علم بإمكانية الطواف بأفريقية بحراً ، فقد سبق للفينيقيين أن طافوا بها في القرن السادس قبل الميلاد ، وسبق أن طاف بها الملاح العربي ابن فاطمة في القرن الثالث عشر بعد الميلاد [1] . وليس ما يمنع من القيام بهذا الطواف مرة أخرى والوصول إلى الهند ، موطن التوابل والبهارات ، وكل ما في الشرق من خيرات . ليس ما يمنع من تحقيق ذلك ، سوى الخرافات التي كانت تعشش في أدمغة الغربيين منذ أيام الفينيقيين ، عما في المحيط الاطلسي من أهوال تستحيل معها الحياة فيما وراء رأس بوجادور .

لقد كان الجنويون على يقين — ولا شك — من تفاهة هذه الخرافات وسخفها . فقد أقام رجالهم في شمال افريقية ، وارتادوا ربوعها ، وصحبوا

(١) الدكتور أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ص ٧٥ .

قوافلها التجارية في رحلاتها عبر الصحراء الكبرى، وجاوزوا رأس بوجادور بمئات الأميال جنوباً، ووصلوا برّاً إلى مقربة من ساحل غينيا، وقتلوا أوضاع تلك المناطق بحثاً ودرساً، فلم يسمعوا ذكراً لتلك الاهوال التي تصوّرها الخرافات. فإذا كانوا في سبيل السيادة على تجارة الشرق، قد تحطموا عسكرياً، أثناء محاولتهم تحطيم البندقية، فلماذا لا يحاولون تحطيمها اقتصادياً؟ إن المصدر الوحيد لقوّتها، هي تجارتها مع الشرق عن طريق حلفائها المصريين. فلماذا لا يعملون على انتزاع تلك التجارة من البنادقة والمصريين جميعاً؟ لماذا لا يحاولون الوصول الى الهند بحراً بالطواف حول القارة الافريقية واستخلاص تلك التجارة من منابعها لأنفسهم؟.

ولذلك، فليس من قبيل الصدفة أن يكون أول روّاد المحيط الاطلسي الغربيين من الجنويين؛ وأول من حاول الوصول إلى الهند بحراً بالطواف حول السواحل الافريقية الغربية من الجنويين؛ وأن تتألف نواة الاسطول البرتغالي من الجنويين؛ وأن يكون كرستوفر كولومبوس الذي اكتشف اميركا، أثناء محاولته الوصول الى الهند، بالإبحار غرباً من السواحل الاوروبية الغربية، من الجنويين.

(٢) البرتغال وطريق الهند

البرتغال وليدة الحروب الصليبية ووارثة أحقادها :

بعد أن اضطرت جنوا إلى التخلي عن مواصلة الكفاح عسكرياً، نتيجة لهزيمتها الساحقة في شيوجيا، راحت البرتغال تحل محلها في الصراع، بل انها إذا أردنا الدقة، كانت قد بدأت تسهم في ذلك الصراع الخالد، منذ الساعات الاولى التي بدأت تتخذ فيها لنفسها كياناً قائماً بذاته مستقلاً عن اسبانيا، وذلك قبل أن يتخلى الجنويون عن مواصلة القيام بدورهم في ذلك الصراع بزمن طويل. لقد برزت الى الوجود، نتيجة للحرب التي شنتها الصليبية على

المسلمين في شبه جزيرة ايبريا ، فاتخذت من شن الحرب عليهم ومناصبتهم العداء محوراً لسياستها العامة منذ البداية . ان تاريخ البرتغال هو تاريخ اسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ؛ وتاريخ اسبانيا منذ الفتح الإسلامي « ليس إلا تاريخ التقاء حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف، إحداهما مسيحية ... وثانيتهما إسلامية ... ولم يكن من اصطدامهما محيص في سبيل السيطرة التامة على شبه جزيرة ايبريا كلها ، برغم ما نشأ بينهما من تبادل المؤثرات والتيارات والميول الحضارية[1] ». وتاريخ البرتغال منذ نهاية القرن الحادي عشر – على الرغم من استقلالها التام – متمم لتاريخ اسبانيا في حروبها ضد المسلمين . بل ان تاريخ ايبريا كلها ، منذ قيام الحروب الصليبية، ليس إلا جزءاً من تاريخ أوروبا الصليبية . فإن « التوافق الزمني بين عصر الجهود المسيحية ضد المسلمين في اسبانيا ، وعصر الحروب الصليبية في الشرق، لم يكن محض الصدفة أو وليدها ... إنّ مطلع الحروب الصليبية ، لا يبعد كثيراً عن فتح المسيحيين الاسبانيين مدينة طليطلة سنة ١١٨٥ م، وإن خاتمتها تقرب من استيلائهم على مدينة مرسية سنة ١٢٦٦ م . ذلك ان الحماسة التي أثارها البابا أوربان الثاني ، إلى الحروب الصليبية لم يقف تيارها أو ينكص عند جبال البرانس ، بل امتد الى اسبانيا المسيحية، حتى شملها كلها بحرارته التي عمّت أوروبا جميعها ..وأعقب ذلك الارتفاع في درجة التعصب المسيحي الاسباني ، نشاط جديد في ميادين النضال بين المسيحيين الاسبان والمسلمين، فدخلت مئات من الفرسان الفرنسيين والالمان والإيطاليين في جيش ألفونسو الرابع ملك قشتالة ، وأسهمت في الاستيلاء على طليطلة سنة ١١٨٥ م[2] » . وكان الأمير هنري مؤسس البيت المالك في البرتغال أحد هؤلاء الفرنسيين .

فلما تم للبرتغال إجلاء العرب من الاراضي التي اتخذتها بعد ذلك وطناً

---

(١) فيشر ، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني وابراهيم أحمد العدوي ، دار المعارف بالقاهرة ، القسم الثاني ، ص ٣٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨٩ .

لها ، وانقطعت بذلك قدرتها على شن الحرب عليهم ،لانقطاع اتصالها الجغرافي بهم ،راحت تعمل على تكوين أسطول بحري لنفسها ، حتى يتسنى لها بواسطته محاربتهم ، ومهاجمة سواحلهم في اسبانيا العربية وافريقية الشمالية . ولم يثبط من عزمها افتقارها إلى مقوّمات الاسطول وعناصره الأولية من سفن وملاحين ، بل حتى وأخشاب لصناعة السفن ؛ فقد شرعت تزرع أشجار الخشب لتوفير حاجاتها منه ، منذ أيام الملك دينيز الأول Diniz I الذي عهد بقيادة الاسطول البرتغالي سنة ١٣١٧ الى مانويل باسنها Manoel Pessranha أحد أشراف الجنويين . وجعل تلك القيادة وراثية في بيته ، على أن يستخدم بعض الجنويين ممن تمرسوا بالبحر وفنونه لقيادة الاسطول . وتشجيعاً للبرتغاليين على بناء السفن ، أصدر الملك اوامره باعطاء كل من يرغب في بناء سفينة ما ، ما يلزمه من الخشب مجاناً من الغابات الملكية ، شريطة ألا يقلّ وسق تلك السفينة عن ١٠٠طن، كما أمر بمنحه عدداً من الاعفاءات والامتيازات المشجعة الأخرى .

فتح سبتة :

وبهذه السياسة استطاعت البرتغال أن تبني لنفسها اسطولاً مكنّها من استئناف غاراتها على الاراضي العربية في عهد ملكها حنا الأول ، وتبدأ توسعها الاستعماري الذي فتح الباب على مصراعيه للاستعمار الغربي الحديث منذ سنة ١٤١٥ م ، عندما استعانت بالمغامرين من الانجليز وغيرهم من الاوروبيين ، وهاجمت مدينة سبتة واستولت عليها . وسبتة هي الميناء الافريقية الحصينة التي انطلق منها طارق بن زياد لفتح الاندلس .

اشترك في الحملة على سبتة ثلاثة من أبناء الملك حنا الاول الى جانب أبيهم ، اشتراكاً عملياً ، وقاموا في الحرب بدور فعّال . بل ان الحملة ما كانت لتقع ، لولا تحريضهم المتواصل لأبيهم على القيام بها . ويتحدث ازورارا Azurara مؤرخ هنري الملاح ، باسهاب عن الوسائل التي لجأ اليها أبناء الملك لحمل أبيهم على القيام بتلك الحملة ، والمناقشات التي دارت بينه وبينهم بصددها ، وما

كان لأمهم المتعصبة ولرجال الكنيسة من تـــأثير قوي في القضاء على تردد الملك ، ويتحدث كذلك عن الدور الرئيسي الذي لعبه هنري الملاح في إنفاذ تلك الحملة ، وانه كان في مقدمة من اقتحم المدينة من المهاجمين . ومرد الحماسة العارمة التي كانت تدفع بهنري الملاح الى التكالب على مناصبة المسلمين العداء ، وتكريس نفسه لمحاربتهم ، راجـع الى الروح الصليبية التي كانت تهيمن على أوروبا آنذاك ، والتي نمتها في نفسه امه الإنجليزية المتعصبة ،وإلى نشوة النصر التي كان يحس بها لكونه سليل البيت الذي انتزع الاراضي البرتغاليـــة من أيدي العرب . وفوق ذلك كله ، إلى إغراء الجنويين ، وتحريضهم المتواصل له على انتزاع تجارة الشرق من أيدي العرب وحلفائهم البنادقة .

جنوا والبرتغال :

كان حجر الزاوية في سياسة الجنويين ، الانفراد بتجـــارة الشرق مهما كانت الوسيلة ، ومهما بلغ الثمن . ولذلك فقد عرضوا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي على سلطان العراقين الخان ارغون ، مشروعاً لنقل التوابل من ساحل الملبار إلى الخليج العربي بحراً ، ومنه إلى مـــواني‌ء البحر الابيض المتوسط الشمالية برا ، حيث كانوا قد استطاعوا بفضل ما أسداه اليهم البيت الامبراطوري في بيزنطة من عون وتأييد ، أن يطردوا البنادقة من تلك المواني‌ء . وكان مشروعهم يعتمد على بناء اسطول جنوي في الخليج العربي ، يتولى إغـلاق البحر الاحمر في وجـه التجارة الهندية [١] . وعلى الرغم من فشلهم في تحقيق ذلك المشروع ،فإنهم ما انفكوا يتطلعون الى الهند والوصول اليها بطريق أو بأخرى ، غير الطريق المألوفة آنذاك ؛ فقـد كانت آمالهم معلقة على تحقيق ذلك الهدف العظيم .فلما عهد ملك البرتغال في سنة ١٣١٧ م إلى باسنها الجنوي قيادة الاسطول البرتغالي ، تسنى للجنويين بذلـك الحصول على موقع ممتاز ، فتوهموا ان الفرصة قد واتتهم لتحقيق أحلامهم الجريئة .

غير إن البرتغال لم تستخدم الجنويين لتساعدهم على تحقيق مشاريعهم على

(١) Panikkar , Asia and the western Dominance, p: 26 .

حسابها ، وإنما ليحققوا لها مشاريعها . وقد تجلى موقف كل منهما من الآخر ، منذ بدأت جهودهما المشتركة تبشر بشيء من النجاح . فعندما شرع هنري الملاح في بناء مدينة ساجرس Sagres التي اتخذها قاعدة لعملياته البحرية ، عرض عليه الجنويون أن يشتروها منه بثمن عظيم . ولو باعها لهم ، لاستقلوا بالعمل لمصلحتهم الخاصة ، ولكان من المرجح أن تكون الكشوف الاستعمارية وما أفادته البرتغال منها من ثراء وقوة من نصيبهم ولكن هنري الملاح لم يستجب الى هذا الإغراء ، لأنه كان على ثقة من إمكانية الوصول الى الهند بحراً ، كما يوحي بذلك المرسوم البابوي الذي منحه البابا نقولا الخامس في سنة ١٤٥٤ م الى ألفونسو ملك البرتغال .

والواقع ان الجنويين كانوا يحاولون استغلال البرتغاليين والمكر بهم ، وكان البرتغاليون يحاولون كذلك استغلال الجنويين والمكر بهم . ولو جاز لامرىء أن يطلع على تطور ذلك الصراع الصامت الذي كان يدور بين هؤلاء الحلفاء، وهو لما يزل في ضمير الغيب ، لبانت له النتيجة جلية واضحة . فما تحالف اثنان غير متكافئين ، إلا وكان الغنم للاقوى ، والغرم على الاضعف منهما . لقد أفاد البرتغاليون من تلمذتهم على الجنويين في الشؤون البحرية طيلة قرن من الزمن ، فتشبعوا بروح الإقدام والمغامرة التي اتصف بها الجنويون ، واكتسبوا من المعرفة بالفنون البحرية ما أهلهم للاضطلاع بالعمل على تحقيق المهمة التي لم يتسنّ للجنويين إتمامها ، فتمكنوا آخر الامر من الوصول الى الهند عن طريق البحر ، دون المرور بالبحر الاحمر أو الخليج العربي . وكانت احدى نتائج هذا الكشف وبالاً على الجنويين أنفسهم ، وعلى كافة المدن الإيطالية التجارية. فقد تحولت تجارة الشرق الى البرتغال ، وتوقف المعين الذي كان يمد تلك المدن بأسباب القوة والعظمة والثراء .

هنري الملاح يترسم خطى الجنويين :

وجد هنري الملاح السبيل ممهدة أمامه للعمل على تحقيق كشوفه البحرية . لقد سبقه الجنويون الى الجزر الخالدات مراراً ؛ فكان غاية ما يبدأ به ، هو

أن يترسم خطاهم اليها . فبعث أسطولاً كبيراً الى تلك الجزر ، وأمر بعد ذلك بتأهيلها . وكما تتبع آثارهم الى هذه الجزر ، تتبعها أيضاً في ارتياد السواحل الافريقية الغربية . ولعل ذلك كان بتحريض منهم بادىء الامر . والواقع ان هنري الملاح لم يحقق شيئاً من كشوفه عن طريق الصدفة . فإن ما توفر من المعلومات الجغرافية في زمنه ، يدل على ان الطواف بجنوب القارة الافريقية والوصول الى الهند كان من الامور الممكنة . بل ان الطواف بالسواحل الافريقية الجنوبية ، والعبور من أحد المحيطين - الهندي والاطلسي - الى الآخر ، كان قد تم تحقيقه على أيدي العرب ، قبل أن يبدأ هنري الملاح كشوفه « العلمية » بزمن طويل . « فثمة وثيقة عربية ... لجغرافي عربي من غرناطة ، هو ابن سعيد (١٥٠٠ م) الذي ألف كتاباً شهيراً بعنوان « جغرافية الاقاليم السبعة » كتبه على نهج (الادريسي) (أبي عبد الله ١١٠٠ - ١١٦٥ م) في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، ورد فيه أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة ، دار حول افريقيا من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر ، وكيف كانت جالية هندية تعيش في مدغشقر في ذلك الوقت [١] » .

ويذكر كراتشوفسكي : « ان فرا مورو Fra Mauro عندما وضع مصوره الجغرافي عام ١٤٥٧ ، ذكر ان ملاحاً عربياً أبحر حوالي عام ١٤٢٠ م ، من المحيط الهندي حول القارة الافريقية ، فظهر بالمحيط الاطلنطي [٢] » .

ويبدو ان هذه القصة كانت شائعة بين أهل افريقية الشرقية ، فقد سمع بها هناك بعد ذلك الجاسوسان اليهوديان ابراهيم البيخي Abraham of Beja ويوسف اللاميجي Joseph of Lamego اللذان كانا يعملان لملك البرتغال حنا الثاني ، وذلك قبل أن يكتشف برثلميو دياز ، رأس الرجاء الصالح [٣] . أو انهما سمعا بقصة شبيهة بها .

(١) الدكتور أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ، ص ٧٥ .
(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٥٦٢ .
(٣) Sir Harry H. Johnston , Colonization of Africa p: 81-2n .

سبتة نقطة الانطلاق :

كان للمعلومات التي حصل عليها هنري الملاح من الاسرى المغاربة الذين كانت لهم معرفة بالمناطق النائية ، وغيرهم من سكان المناطق الافريقية والاسلامية المختلفة الذين كانوا في سبتة عند سقوطها ، عن ثراء البلدان الشرقية وخيراتها ، ولما استنتجه مما شاهده في أسواق المدينة خلال نهبها ، من الكنوز التي جاءت بها القوافل من الشرق الاقصى والهند ، عبر مناطق كانت ما تزال مجهولة للاوروبين ، تأثير بعيد المدى في نفسه ، فقد ألهبت أطماعه ، وأثارت أحقاده على العرب الذين ينعمون وحدهم بتلك الخيرات . كما ان اسطورة برستر جون ذلك الملك المسيحي الخرافي ، الذي كانوا يتوهمون في أوروبا ، وجود مملكته في ناحية ما من الشرق ، لا بد وأن تكون أثارت اهتمامه ، وحفزته على السعي للاتصال بذلك الملك المسيحي ، فقد كان يعلق على الاتصال به أعظم الآمال ، للالتفاف حول العالم الاسلامي وتطويقه ، تمهيداً لشنّ حرب صليبية عليه . لقد كان فتح سبتة بما وفره من المعلومات عن السواحل الافريقية ، وما كشفه من ثراء البلاد الشرقية ، النقطة التي انطلقت منها الكشوف البرتغالية ، والمنبع الذي فار منه الاستعمار الصليبي على الشرق ، تحقيقاً للغايات التي استهدفها البابا أوربان الثاني من إشعال الحروب الصليبية .

القرصنة البرتغالية :

سبق أن أشرنا الى ان بعوث هنري الملاح البحرية ، أخذت تترسم خطى الجنويين إلى الجزر الخالدات ، ثم اتجهت بعد ذلك الى السواحل الافريقية الغربية . ومنذ سنة ١٤٢٢ م ، وهو يوالي إرسال تلك البعوث سنة بعد أخرى . ومع ذلك ، وعلى الرغم مما تكبدته تلك البعوث من نفقات هائلة ، فإنّ أيّاً منها لم يجرؤ على تخطي رأس بوجادور . بل ان أغلبها ما يكاد

يغادر مراسيه في الأراضي في المياه البرتغالية ، حتى يتجه الى سواحل غرناطة أو شمال افريقية ، أو شرق البحر الأبيض المتوسط ، ليمارس القرصنة ويتصيد الأسرى من المسلمين ، كيما يبيعهم أرقاء ، بدلاً من العمل على تحقيق أهداف هنري الملاح « العلمية » .

وزال الاحجام الذي كان يهيمن على رجال البحر البرتغاليين ، بعد أن غامر أحدهم وتخطى رأس بوجادور ، فألفى الأمور طبيعية عادية على غير ما كانوا يتصورون في أوروبا . ومن ثم فقد راحت بحوثهم تتدافع الى السواحل الافريقية ، ورحلاتهم تمتد شيئاً فشيئاً نحو الجنوب . وكانت جميع رحلاتهم لا تخرج في حقيقتها عن كونها من حملات القراصنة ، هدفها الرئيسي اقتناص الافريقيين . وكمثال لتلك الحملات ، نشير بصفة خاصة الى الحملة التي أقلعت الى غرب افريقية سنة ١٤٤٣ م بقيادة نونو تريستون Nuno Tristao ، فقد كان لما حققته دوي عنيف ، وصدى بعيد المدى ، ونتائج في غاية الخطورة ، أثرت في تكييف نظرة البرتغاليين الى جهود هنري الملاح وكشوفه . فحتى ذلك التاريخ ، كان الرأي العام في البرتغال ، ينظر الى تلك المحاولات ، نظرة بعيدة عن الرضى والتأييد ، لنتائجها العقيمة ، ولما كانت تتطلبه من نفقات باهظة لم يكن لها من مسوغ معروف لدى الرأي العام البرتغالي . فلما بدأت قوافل الاسرى الافريقيين تترى ، واحدة تلو الاخرى ، وأخذت الشكوك تساور اولئك الناقمين في صواب حكمهم على أعمال هنري الملاح أولاً ، ثم بدأ التأييد يحل محل الانتقاد تدريجياً ؛ حتى اذا عاد نونو تريستون من رحلته ، اجتاحت البرتغاليين رغبة جامحة في المشاركة في تلك الجهود . فإن رؤية الاسرى الذين جاءت بهم الحملة ، أشعلت نار الجشع ، وأثارت عرام الشهوة الى النهب والقرصنة والاسترقاق في قلوب البرتغاليين عامة ، وفي قلوب رجال هنري الملاح المقربين خاصة . وكان لانسروت Lançarote أمين الخزانة البرتغالية في مدينة لاجرس ، أول من استجاب إلى ذلك الإغراء ، فاتفق مع بعض وجهاء المدينة على تأليف حملة من ست سفن حربية ، لاختطاف الزنوج من افريقية . ثم عرض مشروعه على هنري الملاح فباركه ، وأمر بأن تحمل

أعلام تلك الحملة الصليبية ، شعار طائفة المسيح الدينية التي يرأسها .

وأقلعت الحملة الى افريقية ، وراحت تمعن في اختطاف الافريقيين الآمنين بمنتهى الوحشية والقسوة . وكان يوم رجوعها الى لاجرس من الأيام المشهورة، فامتلأ الشاطىء بالناس ، وامتطى بعضهم مـا وجدوه من القوارب وتوجهوا الى عرض البحر للترحيب برجال الحملة المظفرين .

وأمر هنري الملاح بتقسيم الغنائم بناء على اقـتراح لانساروت . فجيء بالأسرى الى ميدان خارج المدينة ، وكان عددهم يربو على مـائتين وخمسين . وكان الميدان مليئاً بالناس الذين تركوا أعمالهم وهرعوا من المدينة والمناطق المجاورة ، ليمتعوا أنظارهم بمشاهدة اولئك التعساء . وكان الامير هنري الملاح على صهوة جواده يتمخطر بين الناس ، مزهوّاً بما أحرزه من نصر مؤزر . وقد فرّق حصته من الغنيمة ، وكانت ٤٠ أسيراً على أصحابه المقربين .

وتوالت حملات القراصنة البرتغاليين على السواحل الافريقية الغربية، وراحت تحمل اليها الدمار والاستعباد . وأخذت السواحل التي ترتادها سفنهم تقفر من آهليها ، إمّا لأن البرتغاليين استأصلوهم قتلا وأسراً ، وإمـا لأنهم فرّوا بأنفسهم وحرّياتهم من الهلاك والاستعباد . كما أخذت مقاومة الافارقة تشتد ، بعد أن زال عنصر المفاجأة الذي كان له ، أول الامر ، أثر بالغ في تحطيم معنوياتهم .

وكلما عزّ الصيد وامتنع ، كلما راح البرتغاليون يفتشون عن مناطق جديدة تكون فيها حقيقة أهدافهم مجهولة عند الوطنيين ، فيسهل اصطيادهم من غير عناء كبير . وهكذا أخذت غزواتهم تمتد نحو الجنوب على امتـداد السواحل الافريقية ، وهدفها هو الكشف عن مصادر جديدة «للذهب الأسود» كما كانوا يسمّون الزنوج في ذلك التاريخ .

ولهذا فإنّ الاستاذ « بين » Payne لا يتجنى على الحقيقة إذا اعتبر الأمير هنري الملاح ، من زعماء العصابات التي كانت تمارس اختطاف العبيد (١) .

(١) Travel and Travellers of the Middle Ages , edited by A . P. Newton, p: 214 .

ملوك البرتغال والكشوف الاستعمارية :

بعد أن انتقل الاهتمام بحركة الكشوف الاستعمارية ، بعد وفاة هنري الملاح ، إلى ملوك البرتغال أنفسهم ، أخذت تلك الحركة تتعثر ، نتيجة لاضطراب الاوضاع الداخلية في البرتغال حيناً ، ولانشغال الجالس على العرش بأمور أخرى حيناً آخر . وقد اضطر الملك ألفونسو الخامس في سنة ١٤٦٩ م ، أن يضمّن الاتجار مع افريقية بمبلغ ٥٠٠ كروساد ولمدة خمس سنوات ، باستثناء تجارة العاج التي احتفظ بها للتاج البرتغالي . وقد تعهد الضامن أن يستكشف ١٠٠ فرسخ سنوياً ، مبتدئاً من سيراليون . وقبل نهاية الضمان ، تجاوز البرتغاليون خط الاستواء ، وبلغوا رأس القديسة كاترين الواقع على بعد درجتين جنوبي ذلك الخط .

ولما مات الملك ألفونسو سنة ١٤٨١ م ، وخلفه ابنه حنا الثاني ، انتقلت حركة الكشوف البرتغالية من الفتور والاسترخاء اللذين رانا عليها أيام الملك السابق إلى طور جديد يمور بالحيوية والنشاط . وكان الملك حنا الثاني قد تدرب منذ شبابه الباكر على الاهتمام بالكشوف الاستعمارية . فقد عهد اليه أبوه الإشراف على شؤون المستعمرات والإستكشاف ، وهو ما يزال في الثالثة عشر من العمر . وكان من الاهداف التي وضع نصب عينيه تحقيقها الوصول إلى بلاد برستر جون ، ليتخذ منه عوناً على مهاجمة البلاد العربية ، وعلى بلوغ الاراضي التي تأتي منها التوابل التي يتولى الإيطاليون تسويقها في البلاد الاوروبية . لقد استولت تجارة التوابل الهندية على اهتمامه بصفة خاصة ،منذ أخفق الفلفل الافريقي الذي كان قد أرسل عينات منه الى الاسواق الاوربية في تحقيق أثمان تضارع أثمان الفلفل الهندي . ولذلك فقد أرسل جواسيسه الى الى القاهرة ، للبحث عن أسباب هذا الفرق في الاسعار ، ولجمع المعلومات المختلفة المتعلقة بتجارة التوابل بصفة عامة . وحينما عرف من تقارير جواسيسه ، مقدار الارباح الهائلة التي يجنيها الوسطاء الإيطاليون من هذه التجارة ، عقد النية على الاستحواذ على تلك الارباح الهائلة ، وحرمان البلدان الأخرى منها . وحتى لا يزاحمه مزاحم في المستقبل ، استصدر مرسوماً بابوياً

جديداً يعزز مرسوماً سابقاً كان الأمير هنري الملاح قد استصدره في سنة ١٤٥٤ م ، يحرّم ارتياد تلك المياه على جميع الامم الأخرى . ومع ذلك فقد خشي أن تحاول إحدى الدول التسلل إلى السواحل الافريقية ، خاصة وقد ترامى الى مسامعه ان بعض الإنجليز يفكرون في الرحلة اليها ، فأرسل إلى إدوارد الرابع ملك إنجلترا ، ينبئه باستيلاء البرتغال على افريقية ، ويطلب منه منع رعاياه من للسفر اليها . وقد استجاب الملك إدوارد إلى هذا الطلب، ومع ذلك – وخشية أن يجد الطامعون منفذاً للتحايل على هذه الإجراءات الوقائية ، وللحيلولة بين الأجانب والوصول إلى المياه الافريقية – اتخذ له جواسيس يوافونه بأنباء المحاولات التي قد تجري للاتجار مع افريقية ، وأمر ملاحيه بابقاء أمر الأراضي التي يزورونها طي الكتمان .

اكتشاف رأس الرجاء الصالح :

واصل الملك حنا الثاني العمل على اكتشاف طريق جديدة الى الهند ،وكان على يقين من وصول رجاله اليها ، إذا واصلوا السفر جنوبا على امتداد الساحل الافريقي ؛ وقام بارسال البعوث التبشيرية الى افريقية لتقصي أخبار برستر جون الذي كان يعلق عليه أكبر الآمال في تحقيق أهدافه العدوانية ؛ وبعث بالملاح الشهير برثلميو دياز الى البحار الجنوبية لمواصلة الإبحار في اتجاه الجنوب الى أبعد ما يستطيع .

أقلعت حملة دياز في نهاية أغسطس سنة ١٤٨٦ م ، وأمضت سنة مضنية وهى تضرب في مجاهل المحيط الاطلسي حتى ضج بحارتها بالشكوى مما يعانون، وحاولوا التمرد والعصيان . وأخيراً قادته الصدفة الى رأس الرجاء الصالح بعد أن يئس من الوصول اليه ، فانقلب يأسه الى سعادة غامرة . وقد أسمى ذلك الرأس ، رأس العواصف ، ذكرى للاخطار التي تعرّض لها في تلك النواحي من شدة الرياح ، ولكن الملك حنا الثاني أسماه رأس الرجاء الصالح، لأنه أدرك انه اكتشف الطريق الى الهند .

الجواسيس يمهدون الطريق :

بينما كان برثلميو دياز يضرب في متاهات المحيط الأطلسي ، كان الملك حنا الثاني يواصل إرسال جواسيسه إلى الشرق ، لمعرفة موضع برستر جون ، وما إذا كانت بلاده تتصل بالبحر ، وأين تقع مواطن الفلفل والقرفة وغيرهما من التوابل والبهارات التي يؤتى بها إلى مدينة البندقية من بلاد العرب .

وكان من هؤلاء الجواسيس ألفونسو دي بيفا Alfonso de Payva وبيدرو دي كوفلهام Pedro de Covilham وهو ممن خدموا العائلة المالكة في البرتغال بإخلاص . وعندما وقع الاختيار عليه للقيام بهذه المهمة ، كان في مهمة سياسية في شمال افريقية ، وهي توقيع معاهدة للصلح مع أمير تلمسان ومهمة تجارية ، هي شراء أردية صوفية وخيول من بلاد البربر ، إلى سيده ابن عم الملك وصهره .

وسافر الجاسوسان الى برشلونة ، فنابولي ، بعد أن تزودا بجميع البيانات والخرائط المتوفرة لدى الملك ، والتي قد تسهل مهمتهما . ثم أبحرا إلى رودس ، فالإسكندرية والقاهرة ، حيث أقاما بعض الوقت ، إلى أن وجدا جماعة من العرب متوجهة الى عدن ، فصحباها الى الطور . وهنـــاك حصلا على بعض المعلومات عن تجارة كليكوت . ثم أبحرا إلى سواكن ، فعدن ، حيث افترقا ، على أن يلتقيا مرة أخرى في القاهرة في موعد معين .

ومن عدن أبحر كوفلهام في سفينة عربية الى الهند ، فوصل بعد شهر إلى كنانور Cananor على ساحل المليبار . ومنهـا توجه الى كليكوت . وفي هذه المدينة التي كان يرسو في مينائها أكثر من ألف سفينة ، علم ان الفلفل والزنجبيل والنيل تنبت على ساحل المليبار ، وان القرفة تستورد من سيلان . وسمع ان مواطن الفلفل وجوز الطيب والبهارات والكافور ، هي ملقـــا وسومطرا وبورنيو وجاوة . وان الكافور والمسك والراوند والندّ تـأتي من الصين ، كما تأتي من تلك البلدان النائية الاصباغ واللبان والشامي العطر والعود . وعرف

من أين تأتي الأحجار الكريمة والألماس . أما الذهب فكان شائعاً في كل مكان، حتى ان التجار في كليكوت ، كانوا يرفضونه ثمناً لبضائعهم ،فكانت المعاملات تجري على أساس من المقايضة .

أما برستر جون ، فلم يعثر له على أثر في آسيا . ولما كان يعتقد ان بافيا قد توجه الى الحبشة ، فإنه لم يَرَ حاجة الى أن يقوم هو أيضاً بزيارتها. ولكنه قرر الإبحار مع الساحل الافريقي الشرقي الى أبعد مدى يستطيع الوصول اليه جنوباً ، فقد طالما أسال لعابه ، ما سمعه عما في تلك الاراضي من الذهب والفضة والعنبر والطيب . كما قرر أن يزور مقديشو ، وهي أحد الامكنة التي عليه أن يشملها في تقريره الى سيده ملك البرتغال .

وسافر من الملبار مع بعض التجار العرب الى هرمز ، عاصمة الشرق التجارية آنذاك . فشاهد فيها تجاراً من القاهرة والاسكندرية ، يستبضعون البهارات والنفائس الثمينة التي تأتي من الصين والهند ، لبيعها بعد ذلك على الإيطاليين والمغاربة . وكانت هرمز في ذلك التاريخ مركزاً لتجارة الخيول . وكان عربها على جانب كبير من الثراء والتحضر . وكان لباسهم يتألف من الأقمشة الفاخرة البيضاء، والأردية الحريرية الجميلة، والأنطقة الموشاة بالذهب. وكانت المعيشة فيها مرتفعة جداً ، لأن ما تستهلكه من الماء يؤتى به إليها من البر الذي يبعد عنها مسافة اثني عشر ميلاً. وقد رأى كوفلهام في الجزيرة تلالاً من الملح الحجري . وكانوا يصدرونه الى الحبشة التي كانت تستعمله والفلفل عوضاً عن النقود . وبعد أن أتم دراسته للحالة التجارية في هرمز ، أبحر الى عدن ، فزيلع ، وكانت من موانيء الرقيق الكبرى في افريقية الشرقية . ثم صحب جماعة من التجار العرب، وأبحر معها في اتجاه الجنوب ، فزار مقديشو وممباسة وزنجبار ، وتوقف في سفالة . وقد سمع أثناء أسفاره بوجود جزيرة عظيمة جداً ، على مقربة من سفالة ، يسميها العرب جزيرة « القمر » — مدغشقر .

(للحديث صلة) علي التاجر

مَعَ القُرّاءِ.. فِي أَسْئِلَتِهِمْ وَتَعْلِيقَاتِهِمْ

ملاحظات واستدراكات

[طالع الأخ الأستاذ حمد بن محمد العبيدي أجزاء متفرقة من مجلة « العرب » وسجل هذه الملاحظات التي ننشرها مقرونة بالشكر والاستزادة]

- ٣ -

وفي الجزء الثامن صفحة ٦٧٤ سطر ٢٣ موقع الجار الخ أكرر أن ميناء الجار ما زالت معروفة وليست بالرايس بل شمالاً عنه .

وجاء في الجزء التاسع صفحة ٧٦٩ الشعيبة الخ مرسى الشعيبة ليس قرب الراس الأسود بل يقع جنوب جدة وعلى بعد حوالي ٨٥ كيلا والخمرة ليست قرية بل محطة صغيرة تبعد عن جدة ١٧ كيلا وفيها مزارع تروى عثرياً وقد سبق ان حفر بها المرحوم الشيخ سليمان الحمد النانيه بعض الآبار وأنشأ مزرعة جلب لها انواعاً من النخيل غير أنها تأثرت فيما بعد لعدم جريان السيول كالمعتاد بسبب اقامة العقوم في جهات وادي فاطمة ومنطقة بحرة ويوجد في الخمرة مركز لخفر السواحل وسلاح الحدود وهذه بعض المرافيء فيما بين جدة والشعيبة : الشهيد ، البلاج ، الرأس الأسود ، البضيع ، صروم القوزين ، شعارة ، القيدان ، المستبط ، الشعيبة المقفولة .

وفي الجزء العاشر صفحة ٨٦٨ حاشية ٢ لا يوجد أي شرح . والذبل هو الغطاء الخارجي للسلحفاة البحرية وكان يستعمل في صناعة الامشاط وتزيين مقابض السيوف والسكاكين ، وعلى الذكر تعرف السلحفاة لدى البحارة باسم صُقر وفي نفس الصفحة سطر ١٧ سمك البهار ما زال يعرف بهذا الاسم في البحر الاحمر نوع من السمك والصغار منه يقال لها تِمرة وقد شاهدت أكبر أحجامه فيما بين ١ الى ١/٥٠ متر اما السمك الذي يروي أنه له رأسين فلا

صحة لذلك مطلقاً انما توجد اسماك مرجانية عديدة منها نوع دائري الشكل تقريباً يشبه رأسها الذيل وفي الجزء الأعلى للمؤخرة لطعة سوداء كأنها عين وعندما يتطلع اليها الانسان لا يتأكد من اول نظرة ايها الرأس وأيها المؤخرة

وجاء في نفس الجزء صفحة ٨٦٩ سطر ١٨ العنبر الخ ما زالت تفد بعض حيتان العنبر الى البحر الاحمر وخاصة في فصل الشتاء، كما يوجد نوع مقيم من الحيتان يسمى البتان ويعرف علمياً باسم الحوت ذو الحربة الصغيرة وقد يصل حجمه فيما بين ١٥ – ٢٠ متراً .

وفي نفس الجزء صفحة ٨٨٥ سطر ٧: ادم الخ ارجح ان ادم تحريف لاسم الجبل الذي يعرف باسم دما وللآن لم اتأكد أيهما الصواب ويلاحظ انه يوجد جبلين يقال للأول دما الحمراء والآخر دما السمراء وكلاهما لغطفان قديماً .

وجاء في الجزء الحادي عشر صفحة ٩٦٢ حاشية ٣ الخ يظن كثير من الكتاب ان عين زبيدة التي اوردتها الى مكة المكرمة هي التي توجد منابعها جنوب شداد والصواب أنها عين حنين التي تقع في أسفل الشرائع وتعرف اليوم بعين سمحة وقد بعثها قبل سنين المرحوم الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية سابقاً واجرى ماءها إلى مزرعة أقامها هناك .

وفي نفس الجزء صفحة ٩٦٩ سطر ٢٣ من الجار الى جدة الخ فالمعروف ان القوافل كانت تقطع الطريق فيما بين المدينة ومكة بين ٨ – ١٠ ايام ولذا فإن ذكر المسافة من الجار الى جدة بنحو عشرة ايام بالبر مبالغ فيه وليس بينهما جبال ولا وعر بل سهل منبسط ولو انه قال في البحر فقد نلمس له بعض العذر فلربما قابلت المسافر بعض العوارض كالريح المعاكسة ويذكر ان الجار كانت قبل مدينة قرب جدة ويقال انه كانت ميناء قرب ذهبان وقد درست ولا يوجد الآن أي دليل أثري يثبت مثل ذلك انما توجد قبور عديدة على بعض منها شواهد قد تدل على أن المنطقة كانت مأهولة .

جدة : **حمد بن محمد العبيدي**

مكتبة العرب

[لا تتحدث العرب في هذا الباب إلا عما يقدم لها من الكتب ، إذ المجال أوسع من أن تتحدث فيه فيما لو اهتمت بكل ما ينشر من تراثنا]

● – مجلة المجمع العلمي العراقي :

وصدر المجلد التاسع عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م) حافلاً كبقية أجزاء المجلة بالبحوث الممتعة الرصينة ، ومنها في هذا الجزء : الإصطرلاب للدكتور إبراهيم شوكة – لغة الشعر للدكتور جميل سعيد – بحث في أسرار الحروف العربية للدكتور مصطفى جواد – ليبيا لدى الرحالة المغاربة للاستاذ عبد الهادي التازي – كتاب الوزارات : وصف مخطوط نادر مجهول المؤلف للاستاذ عبد الحميد العلوجي ... هذه بعض أبحاث المجلة ، يضاف إليها بعض أبواب المجلة الأخرى عن التعريف ببعض الكتب وغير ذلك من الموضوعات القيّمة . ويقع هذا الجزء في ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير .

● – رحلة إلى الأندلس :

سجل الأستاذ ناجي جواد أحد أدباء العراق المعروفين مشاهداته أثناء رحلة قام بها إلى الأندلس في كتاب دعاه « رحلة إلى الاندلس » وقدّمه (إلى الفدائيين المجاهدين من أجل أن لا تتكرر مأساة الاندلس في فلسطين) ... وحوَت هذه الرحلة أبحاثاً شيّقة موجزة عن : الأندلس – مصارعة الثيران – طليطلة – غرناطة – ملقا – اشبيلية – قرطبة – قصة عبدالرحمن الداخل – رجل قرطبة الاول . والاستاذ ناجي جواد في رحلته هذه يجمع بين الوصف لمشاهداته وبين ربط تلك المشاهدات بمعالم التاريخ القديمة ، فرحلته تجمع بين الوصف والتاريخ وتقدم للقارىء صوراً تاريخية واضحة المعالم عن فردوس العرب المفقود . وتقع هذه الرحلة في ١٧٤ صفحة من القطع الكبير على ورق فاخر بطباعة حسنة مزدانة بالصور بغلاف أندلسي أنيق .

● – الحفريات الأثرية في جزيرة فيلكا :

جزيرة فيلكا من جزر الكويت المعروفة ، وقد قامت حكومة الكويت بإجراء أبحاث لكشف بعض آثار هذه الجزيرة ، فعثر فيها على عاديات من من كتابات وتماثيل وآثار أبنية وغيرها تدل على أن الجزيرة كانت على جانب عظيم من التقدم الحضاري ، وقد وضعت وزارة التربية والتعليم في الكويت تقريراً شاملاً عمّا أجري في الجزيرة من حفر وتنقيب، وعمّا عثر عليه فيها من آثار كما وضعت وزارة التربية والتعليم كرّاساً يحوي وصف النقود اليونانيةالتي عثر عليها في الجزيرة مع صورها . وقد كرم الاستاذ الصديق حجي القاسم الحجي باتحاف مجلة العرب بالتقريرين المذكورين .

● – شعراء من كربلاء :

وكرم الاستاذ سلمان هادي الطعمة فأهدى العرب الأجزاء الثلاثة الأولى من كتابه « شعراء من كربلاء » ، ويظهر ان الاستاذ سلمان أراد وضع كتاب شامل لتراجم شعراء كربلاء من القرن السابع الهجري الى مطلع القرن الرابع عشر . والأستاذ سلمان هادي عني عناية فائقة بدراسة ما يتعلق بكربلاء وله مؤلفات عن مخطوطاتها وتراثها وأدبائها . والواقع ان شعراء كربلاء الذين جمع الاستاذ منهم قدراً كبيراً ذوو منحىً وطريقة في الشعر لا يستغني أي باحث في تاريخ الأدب العربي عن دراسة أولئك الشعراء . وهذا الكتاب من أوفى الكتب المتعلقة في الموضوع .

● – ديوان عمرو بن معديكرب :

وقام الاستاذ هاشم الطعان من باحثي العراق المعروفين بجمع شعر عمرو ابن معديكرب الزبيدي ، وبذل جهداً قوياً في هذا السبيل ، بحيث رجع إلى أمهات الكتب العربية المعروفة مضيفاً إلى ذلك الشعر دراسات وشروحاً عميقة ، أخرج كل ذلك في كتاب بلغت صفحاته ٢٨٧ ، يعتبر من أعمق الدراسات الأدبية التي تدل على سعة إطلاع وقوة ، وقد طبعت هذا الديوان وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ونشرته في سلسلة التراث ، حيث جاء الحلقة الـ ١٤ منها . وكرم الاستاذ الطعان باتحاف العرب بنسخة من هذا الديوان . ويرى القارىء في موضع آخر من هذا الجزء بحثاً ممتعاً للدكتور يحيى الجبوري حوله .